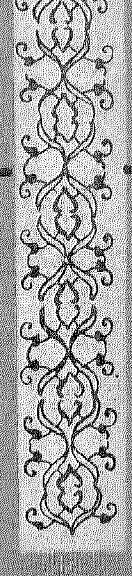
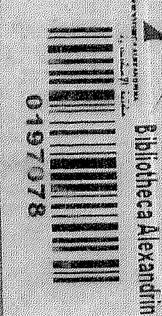
كتاب الهلال

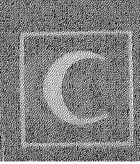


تفسير الأحلام

تبسيط وتلخيص الدكتور
نظمي لوقا

للعالم النفساني
سيجموند فرويد







كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٣٧ - ربيع الاول ١٣٨٢ - أغسطس ١٩٦٢

No.. 137 — AOUT 1962

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون: ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ١٠٠ قرش صاغ - فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا - فى بلاد اتحاد البريد العربى بالبريد البحرى ١٣٠ قرشا صاغا و (بالطائرة) ١٧٨ قرشا صاغا - فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف - فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا أو ٣٥ شلنا

اهداءات ٢٠٠١

اد. محمود دياب

جراح بالمستشفى الملكي المصرى

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع



تفسير الأحلام

للعالم النفسانى
سيجموند فرويد

تبسيط وتلخيص
الدكتور نظمي لوقا



مؤلف الكتاب

فى السادس من شهر مايو عام ١٨٥٦ ، وفى مدينة صغيرة هى فرايبرج فى مورانيا التى يسكنها خليط من الالمان والتشيك لايزيد عددهم على خمسة آلاف نسمة ، ولد طفل اسمه سيجموند فرويد فى بيت متواضع مكون من طابقين ، عتيق البناء ، منفصل عن سائر بيوت الجيران وواجهته عاطلة من الزينة والزخرف ..

ولد هذا العالم الذى سيعنى بالشذوذ النفسى فى أسرة فيها الكثير من غير المألوف .. فأمه الحسناء الورعة الرقيقة فى التاسعة عشرة من عمرها ، وأبوه قد نيف على الخمسين .. وهو وحيد أبويه ، وله مع ذلك اخوة من زوجة متوفاة لابيه هم أكبر من أمه سنا ، وله ابن أخ يكبره بعام .. وعلاقته بأبيه أقرب الى علاقة الحفيد ، وعلاقته بأخويه الكبيرين أقرب الى علاقة الابن ، وعلاقته بابن أخيه أقرب الى علاقة الاخ الاصغر ، ووضعه بالنسبة لابن أخيه يعطيه الحق فى الاحترام .. وتقاربهما فى السن يجعلهما أخوين ورفيقى لعب ولهو ، والوضع الواقعى يجعل العم سيجموند عرضة للكمات وصفعات ابن أخيه جون .. فيحنق عليه ويجتمع فى قلبه له النقيضان من حب وبغض ، ويكون فى حرب مستمرة معه للمحافظة على هيبته السلبية ..

والاب القاسي يثير فى الطفل المدلل من أمه الخوف ، فيدخر له ذلك الطفل الشعور بالمنافسة لانه يزحمه فى عطف أمه ورقتها ، ولـكن ما أن يبلغ الطفل الثامنة حتى يصحبه الاب فى نزهاته ، وتتصل بينهما صداقة تزداد على مر الايام توطدا .. ولـكنها لا تستبعد من نفس الطفل ذكريات الحسد والمنافسة ، فتجتمع النقائض فى عواطفه وتكون نفســه اليافعة مسرحا لصراع السخائم والمودات ولتناقض الواقع والمفروض ومفارقة الحقيقـة والمنطق ..

ولم يكن هــذا هو كل ما ادخرته الحيــاة من دروس التناقض والصراع لذلك الطفل .. فقد شاءت ظروف ديانتــه وقوميته النمسوية أن تجعله فى امبـــراطورية فرانسوا جوزيف .. عرضة هو وآله للاضطهاد والتعقب ومصادرة الرزق والالتواء بالحقوق المدنية حتى اضـطر أبوه أن يهاجر به الى فيينا ، واضطر أخواه الـكبيران للهجرة الى انجلترا .. فأبوه واخـوته كانوا من أهــل صناعة النسيج ..

وتتم الصورة بأن يكون الانقلاب الصناعى على أشــده عند مولد سيجموند ، فتضطرب الاصول الاقتصــادية والاجتماعية ، وتهتز التقاليـــــــد الزراعية والقروية والبورجوازية عموما .. بل يهتز فى نفس الفتى مفهوم الوطنيــة ومفهـــوم التعاطف الاجتماعى ، ولا يكــون له ملاذ سوى حنان أمه الفياض ..

وفى العام الثالث من عمره ، ولدت شقيقته الصــغيرة فعرف الغيرة كما عرف التدليل .. ولهذا السبب ظل فرويد الى ختام حياته يقول : ان أســعد وأجمــل أيام عمره هى السنوات الثلاث الاولى من مراح طفولتـــه فى فرايبورج ..

والمعنى الخفى يتضح حين ينادى فى كتبه العلمية أن الاساس التكوينى للحياة النفسيــة عند الانسان يتم فى السـنوات الثلاث والأولى من العمر ، وقــد ظـل يحلم بمواقف من تلك المرحلة الى ما بعــد ذلك بأربعين عاما تقريبا أحلاما واضحة ، كانت عنصرا أساسيا من عناصر كتابه الباهر « تفسير الاحلام » ..

وفى فيينا ، شاء القدر لسيجموند فرويد الشاب أن يلتقى بأســـتاذ خارق للعادة فى تأثيره الشـــخصى هو « ارنست بروكه » الذى يشير اليه فى أحلامه بأنه الشيخ « بروكه » أو « بروكه » العجوز .. فقد كان ذلك الرجل فنانا فى مغامراته وبحوثه العلمية ، يعتمد على فطنتــه وبصيرته الملهمة .. فكان أشبه شىء فى روحه الشاعرة بالفرنسى العظيم « باستير »

وفى معمل « بروكه » لوظائف الاعضاء قضى سيجموند فرويد ستة أعوام يعمل ليل نهار ، وقد بهرته الابحــاث الفسيولوجية الطريفة ، وقد وجهه « بروكه » الى دراسة المخ والاعصاب .. وأدى ذلك الى تضحية غير هينة من الطـالب الفقير الذى كان أول فرقتــه طوال مراحــل الدراسة ، وهــذه التضحية أنه تخلف بضع مرات عن دخــول امتحان اجازة الطب ، فلم يحصــل على تلك الاجازة الا بعد ثمانية أعوام من الدراسة بدلا من خمسة أعوام على الاكثر ..

وهنا تظهر أريحية الاب الذى ترك لابنه العنان ، وهو معسر .. مع أن العمل فى تلك الابحاث لم يكن ليؤدى الى أية مزية مادية ، ولا سيما فى نظر رجل من رجــال الصناعة ..

وبعد التخرج لم يعمل بالطب الا قليــلا .. والتقى وهو طبيب امتياز بعالم آخر هو « ماينرت » الذى وجهه

الى جراحة المخ ، وسهل له ــ بعد ذلك ــ الحصول على منحة دراسية فى باريس ليدرس الامراض العصبية على يد العلامة الفرنسي الكبير « شاركو » ..

وفى سبيل تلك الدراسة ضحى فرويد بتضحية أخرى عاطفية ، اذ اجل عقد زواجه خمسة أعوام .. وعاش فى باريس فى رهبانية علمية ، وجرب بنفسه معنى الكبح لغريزته وفاء لخطيبته ..

ومهما اختلفت الآراء فى سيجموند فرويد فهو من أكثر الناس تأثيرا فى التيار العلمى .. ولا محيص من الاعتراف بأن العلم بعد فرويد غير العلم قبل فرويد ، ولا سيما فيما يتصل بجميع وجوه الحياة النفسية

والرجل بعد ذلك مثقف ثقافة واسعة ، ومحفوظاته من الشعر فى جميع اللغات الحية تثير الدهشة..وفطنته الفنية خارقة للمعتاد ، ولكن الكتاب علمى فى مادته وأسلوبه ومنهجه لا يقدر على هضمه الا أهل الصناعة المتخصصين ، فكانت مهمتى الاولى أن أجعل منه خلاصة ميسرة للمثقف العادى من سواد القراء فى لغتنا العربية ..

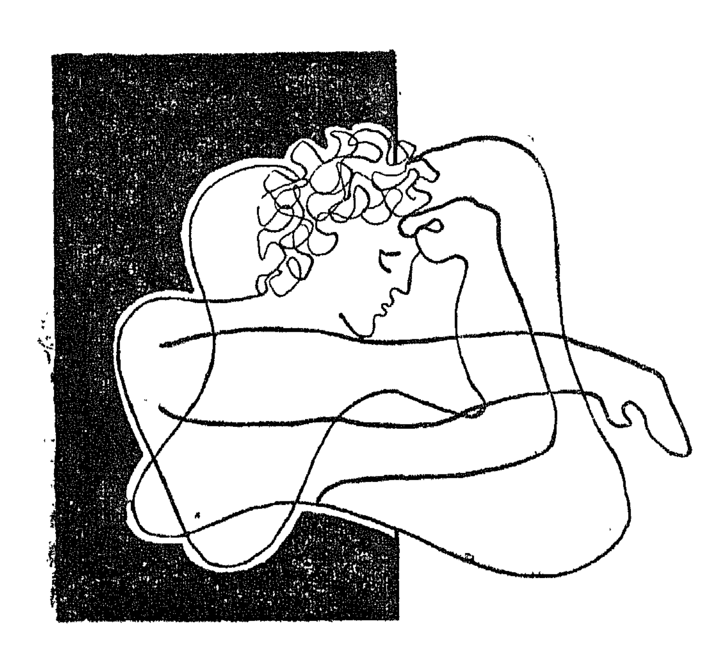
وقد المنا فى هذا الكتاب بأطراف الموضوع ، وتركنا جانبا ما لايشغل الا المتخصص ، حتى تأتى هذه الصفحات سائغة المذاق منطوية على خلاصة شاملة للباب ذلك البحث الخطير ..

دكتور نظمى لوقا

الفصل الأول

التراث العلمي والأحلام • السبيل إلى التأويل

حلم يوليو سنة ١٨٩٥



التراث العلمى والاحلام

ان هــدفى الاول أن أثبت بصــورة قاطعة أن تفسير أحلامنا على ضوء المنهج النفسى أمر مستطاع ، وان اتباع ذلك المنهج كفيل أن يدلنــا على الصــلة بين موضــوع أحلامنا وما تضطرب به نفوسنا من الشواغل .. حتى اذا تم لى الوصول الى هذه الغاية بينت للقارىء كيف أن ما يتراءى لنا فى الاحلام لابد أن يلتوى مبناه وتغمض معالمه بتأثير من النشاط النفسى ذاته

والاهتمام بمادة الاحلام قديم قدم النفس البشرية.. بل ان الشعوب البدائية كانت تهول من أمر الاحلام وما يتراءى فيها تهويلا لا نعهده لدى أبناء الحضارة ، ونلاحظ أن القدماء على العموم كانوا يعتقدون أنهم يرون فى منامهم صورا ترد عليهم من عالم ما فوق الطبيعة .. فالاحلام انما هى رسائل كائنات الهية فوق مستوى البشر .. وتعبر عن تلك الارادات الخارقة للطبيعــة ، ولذا كانوا يهتمون بما يرونه فى أحــلامهم ليعرفوا عنــه مدلولات الغيب وما سطر لهم فى لوح القدر ..

وهـــــذا ما كان القدامى من العلماء يسمونه فن « التأويل » أو فن « العرافة » ..

ثم جاء ارسطو بتفكيره العلمى ، فكان أول من أرسى وجهة النظر النفسية فى دراسة الاحلام ، وكان المعــلم الاول حاسما فى قوله ان الاحلام ليست رســـائل ترد

علينا من الآلهة ، وأنها لا تكشف لنا شيئا من المصادر الخارقة للطبيعة .. وانما الاحلام عنده لون من النشاط النفسي يصـدر عن النائم بحسب الظروف التى يكون عليها فى نومه ..

وأدخل ارسطو عنصر التجريب ، كما استفاد من التجاريب العارضة ، لتكوين رأى واقعى عن الاحلام.. فيذكر أن الحالم قد يتعرض لمؤثرات وهو نائم ، فيجسم الحلم هذه المؤثرات ويضفى عليها المبالغة والتهويل .. ولربما رأى النائم انه يشوى وسط حريق ذات لهب ، ثم يستيقظ فاذا بطرف من أطرافه قد عرضت له بعض السخونة لسبب من الاسباب كاقترابه أو تعرضه للظى المدفأة أو حرارة المصباح .. !

وما أوسع الشقة بين هذا التفكير الواقعى المتزن وبين قول من سبقوه أن الحلم لا تحدثه النفس النائمة ، بل يرد على تلك النفس من لدن الآلهة فى عالمهم العلوى .. ولم يندثر هذا الرأى البدائى ، بل ظـل سـواد الناس يرون الاحلام على ضربين : فالضرب الاول منها ، ما ينتج عن شواغل الشخص الحاضرة .. كأن يحلم الجائع أنه ينال شبعه من وليمة حافلة بأطايب الطعام ، أو يحلم الخائف بكابوس يروعه ، وليس لهذا الضرب من الاحلام دلالة تنبؤية تنصرف الى المستقبـل .. واما الضرب الثاني من الاحلام ، فلا ينصرف الى الحـاضر بل ينحو الى المستقبل ، ويكشف النقاب عن جانب من محجبات الغيب ، وهذا الضرب من الاحلام قد يأتى على صـورة بشارة ، أو نذير مسموع فى الحلم ، أو رؤيا تصـور ما سيحدث بعد حين بصورة واضحة مباشرة لا تحتاج الى تأويل .. وامـا أن يكون رمزا يتأوله أهل الدراية

هذه النظرة الى الاحلام عاشت قرونا طويلة .. ولم

تزل صاحبة السلطان عند الاكثرين من عامة الناس فى كل مكان ، وهى نظرة كان من الطبيعى أن تتراءى لاقوام يرون العالم كله مسيرا بارادة أو ارادات خارجة .. فلا عجب ان تسقط هذه النظرة على عالم آخر غير عالمنا اشياء لا مصدر لها الا دخيلة النفس ..

ومع هذا لم تعدم الاحلام علماء يحاولون معالجة الموضوع بالعقلية العلمية ، وسنعرض الى نماذج من تلك المحاولات تبين لنا معالم الطريق التى نسلكها بادئين من حيث انتهى أولئك السلف ..

***

وأول رأى تتناوله يدنا هو ما كتبه أحد علماء وظائف الاعضاء القدامى وهو « بورداخ » :

ـ ان الحلم ليس تكريرا لما يمر بنا فى اليقظة من خير أو شر ومتعة أو تقزز .. بل العكس هو الصحيح ، فالارجح ان الحلم يرمى الى تفريغ عقلنا من كل هذه الانطباعات كى يوفر لنا الراحة من عبء شحنات اليقظة بما فيها من خير وشر ..

وهذا رأى يكاد يكون فريدا فى بابه ، لان الكثرة من المؤلفين والكتاب يرون فى الحلم نوعا من الاستمرار لما كان يشغل النفس فى حال اليقظة .. فهذا « هافنر » يقول :

ـ الحلم ان هو الا استئناف على نحو ما لحياة اليقظة ، واذا تأملنا أحلامنا وجدنا أن هناك باستمرار صلة بينها وبين الامور التى كانت تشغل تفكيرنا قبل النوم ، ومهما خفيت تلك الصلة ، فالملاحظة الدقيقة تستطيع أن تدلنا على اتصال ولو دقيق بين ما رأيناه فى الحلم وما وقع لنا فى النهار السابق ..

ولعل «فيجانت» كان أشد الجميع وضوحا فى معارضة رأى « بورداخ » فيقول :

ـ ان الحلم لا يبعد بنا عن الواقع ، بل هو على العكس يعود بنا ونحن نيام الى ما ابتعدنا عنه من شواغل اليقظة ..

أما الفيلسوف « ى . ناص » فيقول :

ـ اننا فى الغالب ندور فى أحلامنا حول الموضوعات التى كان لها أكبر الاثر فى وجداننا .. وهذا يدل على أن مشاعرنا لها دخل كبير فى خلق أحلامنا .. فمن كان طموحا دارت أحلامه حول أكاليل الغار ، ومن كان عاشقا دارت أحلامه حول معبودة قلبه !

وهذه الاقوال المقتبسة كافية لبيان التناقض فى تحديد العلاقة بين مادة الاحلام وحياة اليقظة .. ذلك التناقض الذى لفت نظر « هيلد برانت » فكتب يقول :

ـ ان الحلم شىء مقتطع من الواقع الذى نعرفه فى يقظتنا اقتطاعا تاما .. حتى انه يسوغ لنا أن نقول ان الحلم له وجوده المستقل بذاته كالجزيرة المنعزلة عن الشاطىء ، وبينهما بحر لا يمخر له عباب .. فالحلم بهذه الصفة يسدل على الواقع المألوف ستارا كثيفا ، ويحررنا من سلطانه ، ويجعلنا نعيش فى فترة الحلم قصة مختلفة التركيب كل الاختلاف عن قصة حياتنا الحقيقية .. ولكن فى الوقت نفسه ، نلاحظ أن هناك تيارا فى الاحلام يرتبط بواقع اليقظة مما يدل على أن استقلال الحلم عن اليقظة ليس استقلالا تاما .. بدليل أن الوقائع المفردة التى تتكون منها قصة الحلم مستمدة حتما من تجاربنا الذهنية التى تكونت فى اليقظة ، ولذا فمهما بلغت درجة الحلم من الغرابة ، أو السخافة فلبنات بنائه مستعارة

حتما مما رأته أعيننا أو خطر لبالنـــا ونحن نمارس نشاطنا الواعى ..

***

ولـكننا نلاحظ أحيـانا ما يبدو متعارضـا مع ذلك الرأى الاخير .. وأعنى بذلك أننا قد نرى فى الحلم بعض التفاصيل التى نعتقد أنه ليست لدينا فكرة عنها فيما سبق من خبرات اليقظة ..

وأطرف مثل أعرفه لذلك ما رواه « ديلبوف » من أنه رأى فيما يرى النائم أن الثلج قد غمر فناء منزله ، فطمر — فيما طمر — اثنتين من الزواحف الصـغيرة من نوع الحرباء حتى أوشكتا أن تتجمدا .. فرق لهما قلبـه ، ورفعهما من الثلج ، ويسر لهما التدفئة ، ثم وضعهما فى طاق بالجدار ، وقدم اليهما من الاوراق الخضراء لنبات وجد نفسه وهو فى الحلم يعرف اسمه اللاتينى بدقة .. ونظر الى الحرباءين فاذا موكب من تلك الزواحف الصغيرة يتسلق الحائط زاحفا نحو الطاق .. !

ولما استيقظ « ديلبوف » من ذلك الحلم ، عجب أشد العجب لانه لم يكن يعرف فى يقظته الاسم اللاتينى لذلك النبات الاخضر .. وأخذ ينقب فى القواميس ، واذا به يجد الاسم الذى عرفه فى الحلم صحيحا !

ولم يكن من المستساغ تفسير ذلك بعامل الصدفة.. ولذا شعر « ديلبوف » بأن فى الامر لغزا ، وظل هـذا اللغز يحير الفيلسوف بغير جدوى ستة عشر عاما الى أن ذهب لزيارة أحد أصدقائه ، فرأى عنده ألبوما به نماذج من الازهار المجففة التى تبـاع فى سويسرا للسائحين ، وعلى الفور تذكر شيئا قديما جدا يرتبط بهذا السجل السياحى ، ففتحه بلهفة واذا به يجـد نموذجـا لذلك النبات الذى رآه فى الحلم ، ووجد تحته ذلك الاسـم

اللاتينى مدونا بخط اليد .. وبخط من ؟ .. بخط « ديلبوف » نفسه !

وعندئذ فقط عرف « ديلبوف » حل اللغز الذى حيره ستة عشر عاما .. فقبل حلمه بعامين كانت أخت صديقه الذى يزوره فى ذلك اليوم تقوم برحلة شــهر العسل ، ومرت فى طريقها ببيت « ديلبوف » ونزلت ضيفة عليه ، وقد أحضرت معها من سويسرا ذلك الالبوم وفى نيتها أن تهديه الى أخيها ، وتذكر « ديلبوف » أنه ساعد العروس بأن كتب بخط يده تحت نموذج كل نبات فى الالبوم اسمه العلمى باللاتينية مستعينا فى ذلك بأحد المتخصصين فى علم النبات ..

***

وهذا يبين لنا أن ما نظنه لغزا فى الحلم ، لابد أن يكون ذكرى واقعية منسية !

ومن طرائف الاحلام أيضا أن ما يعجز عن التعرف اليه فى حلم ، قد يقوم حلم آخر بدور المذكر فيه ، ومن ذلك ما رواه أحدهم :

ـ رأيت فيما يرى النائم ، ذات مرة ، حسناء ذهبية الشعر تطلع أختى على قطعة من أشــــغال التطريز ، وشعرت فى الحلم أن وجه هذه السيدة غير غريب عنى ، وأننى لابد قد رأيتها من قبل أكثر من مرة ، ولما صحوت من النوم ، ظل وجه هذه الحسناء ماثلا أمامى بوضوح .. ولــكن ذاكرتى لم تسعفنى بالتعرف على شخصـيتها ، فيئست من ذلك ، وأغمضت عينى مرة أخرى .. ولم ألبث أن استغرقت فى النوم ، واذا بى أرى الحلم السابق ، واذا بى أنتهز الفرصة وأسأل تلك السيدة وأنا فى الحلم أين عساى رأيتها من قبل ؟ .. فدهشت وقالت لى : هل نسيته حقا شاطىء البحر فى موضع كذا ؟ .. وعندئذ

صحوت من نومى ، واستطعت فى هذه المرة أن أستعيد فى ذاكرتى كل ما يتعلق بظروف تعرفى الى هذه السيدة الحسناء ..

وبديهى أن فترة الطفولة هى أهم مورد تستمد منه الاحلام التفاصيل المهجورة والمنسية ، بحيث أن الشخص يعجز فى كثير من الاوقات عن تذكر خبراته السابقة ، ويظن أن الحلم أتاه بمعجزة ليس له بها سابق عهد .. ولعل من المناسب أن أذكر فى هذا الصدد حلما لى شخصيا ، فقد رأيت فيما يرى النائم رجلا أدركت أثناء الحلم انه طبيب مسقط راسى ، ولكن ملامحه فى الحلم لم تكن واضحة ، بل كانت متداخلة فى ملامح مدرس كان يعلمنى وأنا فى المدرسة الثانوية .. وما زلت ألتقى به الى اليوم ، فلما قمت من النوم أدهشنى أن تتداخل ملامح هذين الرجلين ، وذهبت أسأل أمى عن شكل ذلك الطبيب الذى كان يعالجنى فى طفولتى الاولى ، وكانت قد انقضت عند حدوث ذلك الحلم ثمانية وثلاثون عاما منذ آخر مرة رأيت فيها ذلك الطبيب ، وأعتقد أنه لم يخطر على بالى مرة واحدة خلال تلك الاعوام التى تقارب الاربعين ، فقالت لى أمى : ان ذلك الطبيب كان أعور ، وأدركت على الفور سر تداخل ملامحه فى ملامح ذلك المدرس ، لان المدرس أيضا كان أعور !

ويلاحظ الدارسون أيضا أن المادة التى ينتقيها الحلم ليست عادة هى أهم الذكريات وأخطرها شأنا من وجهة نظرنا فى حال اليقظة ، بل هى فى الغالب أتفه التفاصيل وأكثرها خفاء وغموضا ..

وفى هذا الصدد يقول « هيلد برانت » :

ــ ومن الملاحظ الذى يسترعى الدهشة أن الحلم

لا تتخير عناصره من أكثر الاحداث جلاء واثارة ، بل من نفاية التفاصيل التى اهملتها سجلات الذاكرة اذ غبر عليها الزمن .. ولذا نشاهد أنه قد يعصر الحزن قلوبنا لمصاب عائلى فادح ينفى عن أجفاننا النعاس موهنا من الليل .. حتى اذا أخذ الكرى أخيرا بمعاقد الاجفان ، اذا بنا لا نرى فى الحلم شيئا يتصل عن قرب أو بعد بذلك المصاب الجلل كأنما ضاق عنه من رقعة الحلم ما يتسع لندبة مضحكة فى وجه انسان غريب رأيناه عرضا بين عابرى السبيل ، ولم يشغل من اهتمامنا الا أقل القليل !

***

وقد احتدم الخلاف بين المؤلفين حول مصادر الاحلام، ولكننا نستطيع أن نلخص آراء العلماء الى أربعة من تلك المصادر هى :

١ ـ اثارات حسية تأتى من خارج الجسم
٢ ـ اثارات حسية تأتى من الجسم ذاته
٣ ـ اثارات عضوية باطنية
٤ ـ اثارات نفسية خالصة

وكلنا نعرف بالتأكيد النوع الاول من هذه الاثارات التى تحدث لنا ونحن نيام ، فقد يسقط ضوء ساطع فوق وجوهنا ، أو تصل ضوضاء الطريق أو الجيران الى آذاننا ، أو تثير رائحة نفاذة أغشية أنوفنا ، أو ينكشف الغطاء عن جزء من أجسامنا ، أو يلتوى لنا ذراع تحت جنوبنا ، أو تلدغنا احدى الهوام ، وفى هذا الصدد كتب «يسن» :

ـ كل صوت لا تميزه أذن المرء تماما ، وهو نائم ، لابد أن يثير صورا تتسق معه فى الحلم .. فمن يسمع هدير الرعد وهو نائم حرى أن يحلم بساحة القتال ، ومن يسمع صياح الديك يخاله أصوات استغاثة ، أما اذا

تكشف جزء حساس من الجسم أثناء الليل وأصـابتـه قشعريرة البرد ، فما أحرى النائم أن يحلم حينئذ أنه يمشى فى الشارع عاريا أو يسقط فى بركة من الماء البارد، ومن يدخل راسه تحت الوسادة وهو يتقلب جدير أن يحلم بصخرة عظيمة تتأرجح .. وهكذا

ويروى « ماير » انه رأى فى الحلم ذات ليلة عصبة من الرجال يهاجمونه ويلقون به على الارض ، ثم يدقون مسمارا كبيرا بين اصبعى قدمه ، وفجأة استيقظ من نومه ، فاذا به يجد عودا من القش قد دخل بيـن هذين الاصبعين عفوا !

ولا حاجة بنا الى الاستطراد فى ذكر التجارب الطريفة الكثيرة التى اجريت فى هذا الموضوع ..

وكلنـــا نعرف كذلك أنواع الاحـلام التى مصـدرها احساسات فى داخل الجسم مثل الجوع والعطش والرغبة فى التبول ..

وقد آن لنا الآن أن نعرف لمـاذا يأتى النسيـان على معظم الاحلام بعد اليقظة ، فما أكثر ما نشعر أننا حلمنا ولا نتذكر بماذا حلمنا .. وحتى ما نتذكره غالبا ما يكون ناقصا مشتتا بحيث نشعر أن ما احتفظت به ذاكرتنـا من الحلم جزء ضئيل مما أتى عليه النسيان ..

ومع هذا فهناك أحلام تثبت فى الذاكرة بشكل غريب ، وأستطيع على ضوء تجربتى الخاصة أن أقول اننى حللت أحلاما لمرضاى تراءت لهم فى منامهم قبل ربع قرن أو أكثر .. بل وأستطيع أنا شخصيا أن أذكر حلما معينا لى رايته منذ نحو أربعين سنة ، ومع ذلك لم يزل حيـا نابضا فى ذاكرتى .. وهو تناقض غريب ليس من السهل على الذهن أن يجد له تعليلا مقبولا الا بعد اعمال الرأى

ويقرر الباحثون أن تذكر الاحلام تكتنفه صعاب كثيرة ، لاننا نميل فى حال اليقظة الى ملء الفراغات الموجودة فى الحلم بأحداث أو أقوال متخيلة ونحن لا ندرى .. لان العقل الانسانى يميل الى الربط بين الاحـداث المتفرقة برباط منطقى ، وهذا من شأنه أن يزيد فى صعوبةاعتمادنا على الاحلام باعتبارها واقعا نفسيا يفيـد فى التحليـل والعلاج ..

ومهما يكن من شىء ، فان للحلم خصائصه السيكولوجية التى تختلف عن خصائص التفكير العقلى .. فالتفكير العقلى يتوالى فى تصورات أو معان مجردة وهو فى حال اليقظة ، أما فى حال الحلم ، فان الفكرة تتشكل فى صورة متحركة ناطقة وكأنها تتسلل متحررة من سلطان العقل المنطقى لتعيش متحررة بعيدا عن رقابة الارادة الواعية ، ولذا لا نعتقد ونحن نحلم أننا نفكر .. بل نعتقد أننـا نعيش فعلا ، ولذلك يركبنا الذعر من المخاوف فى الحلم ، ويستطيرنا الفرح للاحداث السارة ، ولا نعرف أننا لم نكن نعيش حقا تلك التجارب الا بعد أن نستيقظ ، ونجد أن ما مر بنا فى الحلم لا يتسق مع الواقع الذى يحيط بنا فى حال اليقظة ، وعلى هذا الاساس ربما جاز لنا أن نعلل الفارق بين الحلم واليقظة بأن النشاط النفسى أثنـاء النوم ناقص متحلل من سلطان الارادة ورقابة العقـل المنطقى ، ولذا يأتى الحلـم مفككا حـافلا بالمتناقضـات لا يعرف معنى للمستحيل .. وهكذا يجعلنا الحلم نصدق ما لا يمكن تصديقه ، ونأتى من الافعال ما لا نستسيغ الاقدام عليه ونحن فى اليقظة .. فكأننا بلهاء سـفهاء ، ويؤكد بعض الباحثين أن أكثر من ٩٠ ٪ من الاحـلام خالية من المعنى المعقـود أو الترابط المنطقى .. ولـكن ينبغى الا نغفل رأى رجل مثل « دافيدسون » استطاع

أن يدرك ـ بلمحة عقلية ـ الخاصة المميزة للاحلام :

ـ ان أحلامنا تحتوى على قفزات وطفرات لا نعرف لها تعليلا .. ولكن هذه الطفرات لا تحدث بلا سبب ، بل نجد لها تفسيرا فى قانون تداعى المعانى أو الخواطر.. فان كل فكرة فى الحلم تثير الافكار الاخرى المقترنة بها فى الذاكرة مثل التشابه فى الاسم أو فى صفة من الصفات ، ولكن عقلنا المنطقى لايدرك هذا الاقتران فيظنه هذيانا

ومن الملاحظ أيضا أن الانسان فى الحلم قد يقدم على أعمال فى منتهى السمو لايأتيها عادة ـ وهو فى حال اليقظة ـ فكأنه شخص مثالى ، وقد يحدث فى أحلام أخرى أن يكون نفس الشخص فى منتهى الانحطاط والمجون .. وفى الحلم يمكن أن يقال أن كل شىء جائز !

***

والآن نحب أن نتساءل عن مدى خضوع الاحلام للقيم الخلقية .. وأول ما يحضرنا هو قول « يسن » :

ـ لا وجود فى الحلم لشىء اسمه الضمير .. فالقاتل قد يقدم فى الحلم على السرقة أو القتل أو الاغتصاب وهو لا يبالى أو يستشعر ندما

ويقول « فولكت » :

ـ لا تعرف الغرائز الجنسية فى الحلم أى نوع من الكبح .. فلا حياء ، ولا رادع ، ولا منطق .. بل ان الاشخاص الآخرين أيضا الذين يراهم فى الحلم كثيرا ما يكونون فى صورة أخلاقية مريعة ..

ولكن «شوبنهاور» يرى غير ذلك الرأى فهو يؤكد أن كل انسان يتخذ لنفسه فى أحلامه من السلوك مايوافق طبعه ، فالعفيف عفيف ، والطائش طائش ، والحسود

حسود ، وهكذا .. وكل ما هناك أن النوم يخلع عنـــا قناع التصنع والرياء ، فتبدو حقيقتنا الباطنة على ما هى عليه .. فيصارح كل منا نفســـه بما لا يجسر على التصريح به وهو فى حال اليقظة



السبيل الى التأويل

ان هدفى من هذا الكتاب أن أقيم الدليل على أن الاحلام ليست خالية من المعنى ، وانه يمكن الوصول الى تأويل لها .. وان كان هذا يناقض معظم الآراء العلمية وشبه العلمية .. فما من أحد كان يرى فى الاحلام شيئا منطقيا معقولا من معدن المعقولات البشرية المعهودة لنا ، وان كانوا مع هذا يرونها ذات مغزى غير طبيعى .. فمنهم من يربط بين هذا المغزى وبين عالم الغيب أو دنيا الآلهة وعلامات القدر والنذير ، أما أنا فأرى الاحلام مجرد علامات تدل على عمليات نفسية وفعلية ، وما علينا الا أن نعثر على مفتاح « شفرة » هذه العلامات حتى نصل الى المعنى الحقيقى والطبيعى للاحلام

والناس ، من قديم ، يجتهدون فى تفسير الاحلام على حسب اعتقادهم فى دلالاتها الخارقة ، فكانت مناهجهم غير علمية .. فمنهم من يفسر الحلم كأن حوادثه رموز ، وهذا منهج لا يجدى الا فى الاحلام ذات الترتيب والتناسق الى حد ما .. أما الاحلام الغامضة والمفرطة فى شطحاتها ، فلا سبيل الى علاجها بالمنهج الرمزى ..

ولعل افضل مثال للمنهج الرمزى ، هو تفسير سيدنا يوسف لحلم فرعون مصر كما ورد فى التوراة : انه رأى سبع بقرات سمان ترعى على شاطىء النيل ، ثم خرجت عليهن فى جوف النيل سبع بقرات عجاف أكلن البقرات

السمان ، وعجز المفسرون والكهان عن تأويل تلك الرؤيا ، بيد أن يوسف الصديق تمكن من حل رموزها ، وقال لفرعون أن حلمه يؤذن مصر بسبع سنوات من الخير الوفير فى الغلات والثمار ، ثم تعقبها سبع سنوات من القحط تأكل الاخضر واليابس ، وأن عليه أن يدخر فى سنوات الوفرة ما يسد الحاجة فى سنوات الجوع

ومعظم الاحلام التى ترد فى الروايات ، من تاليف الأدباء ، انما هى من نوع هذا الحلم الرمزى ذى المدلول المعقول .. لان الاعتقاد الراسخ فى الأذهان أن للاحلام دلالة غيبية ، وانها نذير سوء أو بشير خير ..

وليس لهذا التأويل الرمزى لمضمون الحلم او الرؤيا أى منهج علمى ثابت ، وانما المعول فيه على الفطنة والذكاء والفراسة ..

وهناك منهج للتفسير يؤمن به كثيرون من العامة ، وهو منهج ثابت يكاد يكون له قاموس متوارث فى كل بلد على حدة .. فالخطابات معناها نذير نحس ، والمآتم معناها خطبة أو زواج ، وهكذا .. وعنى بعض المؤلفين القدامى بهذا النوع من التفسير ، ووضعوا قواعد تقريبية كثيرة له ..

وأنا لا أعارض فى أن للحلم مغزاه ، سواء كان متماسكا أو مفككا ، وهذا المغزى هو ما توصلت اليه بمنهجى الجديد بعد أن انصرفت سنوات طويلة الى فحص حالات المرضى النفسيين والعصبيين .. فقد كان هؤلاء المرضى يقصون على أحلامهم فيما يقصون على من خواطرهم ومخاوفهم أثناء جلسات العلاج .. فكانت تلك الاحلام من بين ما استعنت به على الوصول الى أسباب اختلال توازنهم النفسى

وقد لاحظت ، أثناء ذلك ، أن المريض وهو يسرد ذكرياته

بلا روية أو ربط يكون فى حالة نفسية مختلفة عن حالته وهو يراقب أفعاله وخواطره وينسق بينهـا .. فهـذا التنسيق معناه الانتقاء ، بحيث يحذف بعض الخواطر فلا يرويها ، ويحور بعضها الآخر ، ويروى البعض الثالث على علاته اذا كان راضيا عنه ..

ولعل خير حالة للسرد بلا انتقاء ، هى حالة الاستعداد للنوم ، أو حالة التنويم المغناطيسى اذا أمكن ذلك .. لانه قبل النوم مباشرة تنثال الافكار فى غير حذر ، وهـذه الخواطر التى تسبق الاستغراق فى النوم هى التى تكتسى اللحم والدم ، وتتحول الى صور متحركة ناطقة أثنـاء النوم .. وهذا ما يسمى بالحلم

وليس جميع الناس سواء فى سهولة هذا « الانثيال » للخواطر الحرة .. فمنهم من تتوفر له رقـابة أقوى من المعتاد ، فتظل قائمة بوظيفة المنع والـكف والمصـادرة والتحوير أثناء النوم ، للحيلولة بين بعض هذه الخواطر والظهور فى عالم الوعى ، ولو أثناء الرقاد ..

ووجود هـذه « الرقابة » هو الذى يمنعنا من اتخاذ الحلم فى جملته موضوعا جديرا بالثقة والتأويل ، بل نكتفى بأخذ مفرداته وعناصره جزءا جزءا ، ونحاول أن نصل الى مغزى كل جزء على حدة ..

ولا يقل عدد الاحلام التى حللتها وفسرتها لمرضاى أثناء العلاج وقبل تأليف هـذا الـكتاب عن الالف حـلم .. ولـكنى لا أميل الى استخدامها فى هذه المرحلة التمهيدية من البحث ، لانى أعلم أن البعض سيسخرون منهـا ويرفضونها من حيث الشكل قائلين أنها مجرد تخريف مرضى بأعصابهم .. والمريض لا يصلح حجة على السليم ، والشاذ ليس مقياسا للطبيعى ..

وما دام الامر كذلك ، فليس أمامى فرصة للاختيار .

انى لا أملك اذن الا أحلامى الخاصة التى تتراءى لى مثل سائر الناس فى الاحوال العادية ، رغم ما فى هذا «التحليل الذاتى » من صعوبات لا أنكرها ، وليس اقلّ هـــذه الصعوبات شأنا انى سأضطر للـكشف عن جوانب من أسرار حياتى الشخصية ، ولـكنى لا أجد مناصـا من ذلك ، وان كنت سأحاول الا أكشف عن أمورى الخاصـة الا القسط الذى لابد منه للمضى فى التفسير وبيان مراحلَ منهجى فى التأويلّ ..

ولى فى غيرى من العلمـاء أسـوة حسنة ، وقد عبر « دلبوف » عن هذا المعنى أحسن تعبير حين قال :

ــ يجب على رجل العلم أن يكشف عن أوجه النقص فى نفسـه بلا تردد ، اذا ما وجد فى ذلك فائدة عامة توضح بعض المشكلات العلمية

وأنا واثق أن القارىء سيترك الفضـــول بالنسبة لخصائص حياتى ويوجه اهتمامه كله الى المادة العلمية التى توضحها له تلك الاحلام

ولذا أرجو القارىء وأنا على وشك أن أبدأ برواية حلم نموذجى من أحلامى أن يعيرنى اهتمامه ، ويشغل نفسه بأمرى ، حتى يتمكن من الغوص معى فى دقائق المغزى الـكامن للحلم وعناصره ..

والآن .. الى ذلك الحلم ..

حلم يولية ١٨٩٥

فى خلال صيف عام ١٨٩٥ ، كنت مهتما بعلاج سيدة شابة من صديقات أسرتى ، وكان العلاج بالتحليل النفسى الذى ثابرت منذ حين على مزاولته ، ووصلت بالعلاج الى مرحلة تعتبر نجاحا لا بأس به فى حالتها .. ذلك انها شفيت من الاضطراب الهستيرى ، ولكن الاعراض الجسدية لذلك الاضطراب لم تزل تماما ، واقترحت عليها خطة لم تحز قبولها ، فقررنا ارجاء العلاج الى ما بعد اجازة المصيف ، وسافرت المريضة — واسمها « ارما » — الى المصيف مع أسرتها ..

وبعد فترة من الزمن جاء لزيارتى زميل شاب تربطنى به صداقة وثيقة ، وكان قد قضى بضعة أيام فى المصيف ضيفا على أسرة « ارما » ، فسألته عن حالتها.. فأجابنى جوابا امتعضت منه بعض الشىء :

— انها بخير .. ولكن ليس كل الخير طبعا ..

فقد خيل الى أن وراء لهجة هذا الرد تقريعا خفيا أو اتهاما بالتقصير ..

وسهرت تلك الليلة فى اعداد تقرير عن حالتها ومراحل مرضها وعلاجها ، اعتزمت أن أقدمه للدكتور « م » الذى نحترمه جميعا ونكبره ، وهو صديق أسرتى وأسرة ارما الموقر ، حتى أنفى عن نفسى كل شائبة تقصير ..

وفى نهاية هذه الليلة — قبيل الصباح — رأيت ذلك

الحلم ، وبادرت فور استيقاظى بتدوينه تدوينا مفصلا دقيقا ..

واليكم ما دونته :

ــ كنت فى بهو كبير نستقبل فيه كثيرين من الضيوف، ومن بين هؤلاء الضيوف « ارما » ، وأسرع فانتحى بها ركنا ، كأنى أريد أن أرد على رسالة سابقة منها وأوبخها لانها لم تقبل اقتراحى ، وأقول لها : انت المسئولة وحدك عن آلامك الحالية ، فترد قائلة : ليتك تدرى مبلغ الآلام التى أشعر بها الآن فى حلقى ومعدتى وأحشائى .. انها آلام خانقة .. فأرتاع لما قالت ، وأتأملها فأجدها شاحبة متورمة ، فأقول لنفسى : لابد أننى لم أفطن الى عنصر من عناصر المرض ، عنصر عضوى .. وأذهب بها ناحية النافذة لارى حلقها ، فتتمنع قليلا كما تفعل النساء ذوات الاسنان الصناعية ، وأحدث نفسى ان هذه ليست حالتها ، وتفتح فمها على سعته ، فأرى بداخله قرحة بيضاء على اليمين ، وفى مكان آخر أبصر قشورا كبيرة مائلة الى البياض فوق تجاعيد غريبة الشكل تشبه كثيرا التجاويف الانفية ، فأنادى الدكتور « م » فى الحال ، فيفحصها بنفسه ويؤيد تشخيصى ، والدكتور « م » ليس كعهدى به ، بل يبدو حائل اللون يظلع فى مشيته وبلالحية ، وها هو ذا الدكتور «أوتو» يظهر بجانب«أرما» ويقبل الدكتور ليوبولد أن يفحصها ، فيدق صدرها من فوق الثياب ويقول : هناك منطقة صماء فى الناحية اليسرى ، ورشح من الجلد فى تلك الناحية أيضا الاحظه أنا رغم أنها لم تخلع ثيابها ، ويقول الدكتور «م» : هذه اصابة نتيجة عدوى .. ولكن لا بأس ، فسرعان ما يزول التسمم وتتلاشى الدوسنطاريا ، ونحن نعلم منشأ العدوى : ان صديقى أوتو أعطاها حقنة منذ مدة من

حامض البروبيونيك .. ومن مركب آخر رأيت معادلته الكيماوية مرتسمة أمامى بحروف كبيرة ، وهذا النوع من الحقن لا يعطيه الانسان الا للضرورة القصوى ، ثم ان المحقن لم يكن نظيفا كما يجب ..

وواضح أن هناك ارتباطا كبيرا بين هـذا الحلم وبين ما حدث فى اليوم السابق .. فالزميــل الذى زارنى وامتعضت من عبارته هو الدكتور أوتو ، ثم اننى قبــل النوم كنت مشغولا بكتابة تقرير عن ارما ، ولـكن هـذا لا يكفى لادراك مغزى الحلم .. فمرض « ارما » فى الحلم يختلف تماما عن المرض الذى كنت أعالجها منه ، وموضوع المحقن غير النظيف والحامض وتعليقات الدكتور «م» كلها أمور فارغة تثير الابتسام ، ولا تدل على شيء جدى لاول وهلة .. فنهاية الحلم أشد غموضا من بدايته !

هذا كله جعلنى أصمم على « تحليل » ذلك الحلم تحليلا دقيقا مهما كلفنى الامر من مشقة .. سأبدأ التحليل جزءا جزءا ..

التحليــل

« البهو .. والضيوف الكثيرون الذين نقوم باستقبالهم »

اننا كنا قد اتخذنا مصيفنا فى منزل فوق ربوة عالية بالقرب من فيينا ، وكانت حجراته أشبه بالابهاء والقاعات التاريخية ، وفى تلك الدار رأيت هذا الحلم .. وفى الليلة التى تسبق عيد ميلاد زوجتى ببضـــعة أيام ، وكانت زوجتى فى اليوم السابق قد أخبرتنى أن ضيوفا سيأتون للزيارة لتلك المناسبة ، ومن بين هؤلاء الضيوف الصديقة « ارما » .. فكأن الحلم قد اتخذ مسرحا له يوم عيد ميلاد زوجتى حيث نقوم باستقبال عدد كبير من الضيوف فى بهو المنزل ومن بينهم « ارما » ..

« توبيخ ارما لانها رفضت اقتراحى وتحميلها وحدها وزر آلامها الراهنة »

وهو كلام كان من الممكن أن أقوله « لارما » فعلا ، لان اعتقادى فى ذلك الحين أن مهمة الطبيب النفسى تقتصر على بيان سبب المرض للمريض ، وعلى المريض بعد ذلك أن يصلح هذا العطب فى نفسه بانتباهه ، وقد عدلت فيما بعد عن هذا الرأى ، اذ ثبت لى خطؤه ، وكانت ارما ترفضه وترى أن أستمر فى العلاج .. فمعنى هذا الجزء من الحلم انى أتبرأ من تبعة ما لم يزل من أوجاعها

« ارما تشكو من آلام فى الحلق والبطن والاحشاء تكاد تخنقها »

وكانت « ارما » تعانى فعلا من بعض آلام خفيفة فى المدة ، أهم أعراضها الغثيان ، واما أوجاع الحلق والاحشاء والاختناق ، فلم تكن من خصائص مرضها ، ولست أدرى لماذا اختار لها الحلم هذه الآلام بالذات !

« رأيتها حائلة اللون متورمة »

وهذا عكس حال ارما .. فهى دائما متوردة البشرة

« ينتابنى الذعر وأخشى أن أكون قد اغفلت عنصرا من عناصر المرض » ..

وهذا الذعر مألوف لدى الاطباء المتخصصين فى الامراض العصبية ، فهناك أعراض جسمية يرجعونها الى العلة النفسية ، ويرى الاطباء العاديون أن سببها مرض عضوى بحت ، ولكن هذا الخاطر فى الحلم قد يكون مصدره الرغبة فى تبرئة نفسى أيضا ، فما دامت آلامها عضوية ، فلست مسئولا عن علاجها فى هذه المرحلة .. لانى مسئول فقط عن الحالة العصبية ، وهكذا لا يكون هناك وجه للومى على الفشل ..

« بجوار النافذة أحاول أن أفحص حلقها فتمانع ، كأن أسنانها صناعية .. فأحدث نفسي أن هذه ليست حالها»

وليس فى حالة « ارما » ما كان يدعو الى فحص حلقها .. ولكن هذا الجزء من الحلم يذكرنى بحالة أخرى لسيدة جميلة شابة حضرت من قبل للعلاج ودعا الامر الى فحص فمها ، فلما طلبت اليها ذلك مانعت قليلا ، وعلمت أن أسنانها صناعية وتريد أن تخفى عنى تلك الحقيقة ، وأما قولى أن هذه ليست حالها فمرجعه ليس الى « ارما » ، بل الى صديقة لها أحترمها كثيرا .. زرتها وكانت واقفة فى وضع مماثل لوضع « ارما » فى الحلم ، وكان طبيبها هو الدكتور « م » فعلا ، ومنه علمت أنها مصابة بأعراض مرض حلقى ، ونلاحظ أن الدكتور «م» ظهر فى هذا الحلم ، وأن مرض الحلق ظهر أيضا ، وأتذكر الآن أن هذه السيدة ـ كما علمت من صديقتها «ارما» ـ تعانى من اختناق عصبى ، وهى الحالة التى شكت منها « ارما » فى الحلم ، وهكذا أدرك أن « ارما » حلت فى الحلم محل صديقتها تلك ، وأتذكر أيضا أننى فى الاسابيع الاخيرة السابقة على الحلم ، كنت أتذكر هذه السيدة ويخطر لى أنها ربما طلبت منى أن أعالجها ، ثم أستبعد هذا الخاطر لما عرفت به تلك السيدة من انطواء وحذر.. ومعنى هذا انها ستمانع فى العلاج ، وهذا ما يفسر عنصر المانعة الذى ظهر فى الحلم ، ومعنى ذلك أن «ارما» مثلت فى الحلم صديقتها تلك .. فما السبب فى ذلك ؟ قد يكون السبب انى أضمر رغبة فى أن تحل تلك السيدة محل « ارما » فى العلاج لما أكنه لها من التقدير .. فأكبر الظن أنها ما كانت لترفض اقتراحى كما رفضته « ارما » التى أشعر بالسخط عليها لذلك السبب ، ومن أنواع الممانعة أيضا التى يرمز اليها عدم فتح الفم على سعته أننى أتهم

« ارما » بأنها لا تعترف لى بخواطرها كلها كما ينبغى ..

« وأرى فى الحلق قرحة بيضاء عن يمين .. وعن يسار أرى تجاعيد أشبه بالاغشية الانفية تنتشر فوقها قشور»

أما البقعة البيضاء فمن علامات الدفتريا ، وهذا يذكرنى بمرض أصاب ابنتى قبل الحلم بعامين ، فسبب لى قلقا فظيعا ، وأما القشور المنتشرة فوق الاغشية الانفية عن يسار الحلق ، فتشير الى قلقى بسبب افراطى يومئذ فى تعاطى الكوكايين ، وكان قد بلغنى منذ أيام أن احدى المريضات تعاطت الكوكايين مقتدية بى ، فأصيبت بالتهاب وقروح فى غشائها الانفى ، وكنت أنا أول من أشار باستخدام الكوكايين للعلاج قبل الحلم بعشرة أعوام ، فأثار ذلك سخط الكثيرين وهاجمونى فى الصحف الطبية ..

« وحضر الدكتور « م » وأعاد الفحص فأيد تشخيصى » ..

وهذا يبدو طبيعيا لان الدكتور « م » هو الحجة الذى نحتكم الى رأيه عند كل شك ..

« والدكتور « م » ليس كالعهد به ، فهو شاحب وبلا لحية ، ويظلع فى مشيته »

وتغير اللون من صفات الدكتور « م » .. ولكنه ملتح ولا يظلع فى مشيته ، ويذكرنى هذا بأن أخى الاكبر الذى يعيش حاليا خارج القطر بلا لحية ، وقد سمعت قبل الحلم ، ببضعة أيام ، أنه أصيب بالتهاب فى فخذه الايسر جعله يظلع ، ولا أعرف لماذا أدمج الحلم الدكتور « م » وأخى ، ولعل السبب هو جامع الاكبار لكليهما بحكم المكانة فى بيئتنا العائلية ..

« الدكتور اوتو يظهر بجانب « ارما » .. ويفحصها

الدكتور ليوبولد ويقرر وجود منطقة صماء فى الجانب الايسر »

والصديقان ليوبولد وأوتو قريبان .. ولكنهما دائما على طرفى نقيض ، وما أكثر ما يختلفان فى التشخيص ، وينافس كل منهما الآخر فى تخصصه ، وفى احدى الحالات اثار ليوبولد اعجابى بدقته حين كشف عن منطقة صماء فعلا فى تلك الحالة ..

« رشح على الجلد فى الناحية اليسرى » ..

هذا الجزء من الحلم يشير الى ما أعانيه انا فعلا من آلام الروماتيزم فى الكتف اليسرى ، وقد نغصنى حين سهرت تلك الليلة لكتابة التقرير ..

«الدكتور «م» يقرر انها عدوى .. ولكنه يستهين بالمسالة ويقرر أن الدوسنطاريا سيقضى عليها ويتلاشى التسمم » ..

وهذا كلام يبدو سخيفا .. فأعراض الدفتريا لايمكن ان تكون لها علاقة بالدوسنطاريا أو التسمم ، ولكنى الاحظ أن المراد بهذا الجزء دفع اللوم عنى بصورة مبالغ فيها ، لان حالات الدوسنطاريا أو التسمم حالات عضوية ليس من اختصاصى علاجها .. فلا يمكن أن ألام اذا كانت « ارما » تشكو منها ، ولكن لماذا يسند الحلم هذا التشخيص السخيف لصديق هو طبيب فاضل ؟ لعل السبب ان الدكتور « م » لا يوافق على اقتراحاتى فى العلاج ، فهو اذن يقف فى صف « ارما » ، فجاء الحلم وانتقم لى من الاثنين .. من « ارما » بالآلام التى تعانيها فى الحلم ، ومن الدكتور « م » بأن أسند اليه تشخيصا كالهراء !

وما جاء بعد ذلك من أجزاء الحلم ، هو تعبير عن « م » موجه الى الزميلين ، واتهام لهما بالاهمال الفاحش ،

والغرض من هذا بداهة هو دفع الملام عن نفسى .. فاذا كان الخطأ خطأ الآخرين ، فأنا لا يمكن أن أكون مسئولا عن سوء الحال !

وهكذا نرى أن الحلم ـ فى ضوء هذا التفسير ـ قام بتحقيق مجموعة لا بأس بها من الرغبات التى خامرتنى فى اليوم السابق .. فجاء الحلم ليبرئنى من ذنب آلام « ارما » ، وليلقى الذنب على أوتو نفسه الذى شعرت من لهجته أنه يلومنى على التقصير فى علاجها .. وأشتط فى انتقامى من أوتو ، فأجعله يبدو أقل كفاءة فى الحلم من منافسه ليوبولد ، وأنتقم أيضا من مريضتى الساخطة ، اذ أعطى شخصيتها ومكانها لسيدة أخرى أجدر باحترامى .. ولا أعفى من الانتقام حتى الدكتور « م » الموقر

وفى اعتقادى أن هذا النموذج يبين خطوات المنهج الذى أنصح باتباعه فى تفسير الاحلام .. فعلى هذا المنوال يتبين لنا أن الحلم ـ على تفككه وتضاربه ـ ليس خلوا من المعنى ، وأنه بعد تأويله تأويلا صحيحا تتضح له صورة متكاملة ومغزى متماسك ، وهذا المغزى يرمى دائما الى تحقيق رغبة تخامر الشخص الذى رأى الحلم





الفصل الثاني

تحقيق الرغبة • لماذا تتشوه الأحلام ؟



تحقيق الرغبة

اذا كانت القضية التى وصلنا اليها هى أن الغرض من الحلم عموما هو تحقيق الرغبة التى تساور الحالم ، فلماذا يتخذ الحلم تلك الصور المتناقضة ؟ .. وهل نستطيع أن نعرف ان كانت هذه الطريقة الملتوية هى المتبعة فى سائر الاحلام ، أم هى طريقة خاصة بهذا الحلم بالذات ؟ !

ان هذا الحلم المعين قد دلنا تحليله على أن الغرض منه هو تحقيق الرغبة التى كانت تساورنى ، ولكن وبما تكشف حلم آخر عن غرض ليس تحقيق رغبة ، بل تجسيم مخاوف ، أو استرجاع ذكرى قديمة ..

فيجب أن نبحث الآن عن صفة تحقيق الرغبة ، وهل تنطبق على جميع الاحلام أم لا ؟ !

هناك أحلام كثيرة يكون واضحا منها لاول وهلة أنها تحقق رغبة للحالم ، وهذا النوع من الاحلام متداول يراه كل منا ، وأذكر الآن — على سبيل المثال — أن من يأكل فى وجبة العشاء أطعمة على درجة عالية من الملوحة ، يشعر أثناء النوم بالعطش ، ويحلم عندئذ بأنه يشرب كميات كبيرة من الماء الذى يبدو طعمه عذبا مرطبا للحلق ، ومع ذلك يستمر الظمأ ويمتنع الارتواء ، فتحدث اليقظة ويجد الشخص نفسه فى حاجة شديدة الى الشرب ..

وواضح أن الشرب فى الحلم كان الغرض منه تحقيق رغبة شديدة للحالم ، لا يمكنه تنفيذها الا اذا استيقظ ،

وهو لايريد بقدر الامكان أن يستيقظ ، ويحاول الحلم بكل قوته أن يقوم بتحقيق الرغبة ، ولكن محاولته لا تنتج آثارها .. فلا يكون بد من اليقظة

وهكذا نرى أن النفس البشرية تتخذ لها شعارا ، هو قانون « أقل مجهود » ومعنى هذا أن تحاول الطاقة النفسية الوصول الى هدفها بأسهل الوسائل وأقرب الطرق ..

وبديهى أن جميع الرغبات ليست سواء فى صعوبتها.. فالرغبة فى ارواء الظمأ لا يكفى الحلم لتحقيقها فعلا ، أما الرغبة فى الثأر من « أوتو » و « ارما » والدكتور « م » فيكفى الحلم لتحقيقها تمام الكفاية .. !

والاحظ أن الاحلام التى تحقق الرغبات الكامنة بسهولة كانت تتراءى فى منامى بكثرة فى فترة الشباب ، لانى فى ذلك الحين كنت أسهر فى البحث والدرس الى موهن من الليل ، وكان على أن أستيقظ مبكرا لاذهب الى المستشفى ، وكان هذا بطبيعة الحال أمرا شاقا ، ولذا كنت أحلم فى معظم الليالى انى قمت من نومى ، ووقفت أمام المغسل ، ورحت أرجل شعرى بعد غسل وجهى .. فكان هذا الحلم يحقق رغبة اليقظة صوريا ، ويتيح لى فترة اضافية من النوم اللذيذ .. !

ويحضرنى بهذه المناسبة حلم كان يتراءى لاحد زملائى الشبان ، وكان يقيم فى حجرة مفروشة قرب المستشفى ويكلف ربة البيت بايقاظه فى ساعة معينة من الصباح الباكر ، ويشدد عليها فى ذلك لعلمه بثقل نومه ..

وذات مرة كانت رغبته فى النوم شديدة .. فلما نادته السيدة :

— قم كى تذهب الى المستشفى ..

لم يستيقظ بل رأى نفسه فى الحلم راقدا فى فراش

بالمستشفى ، وقد علقت على الفراش لوحة تحمل اسمه وتشخيص حالته المرضية .. فقال لنفسه وهو يحلم :

ـ لا ضرورة للذهاب الى المستشفى اليوم ما دمت فيه فعلا !

واستأنف النوم ، لانه أقر اقرارا صريحا بغرضه من هذا الحلم ، وهو ايجاد ذريعة لعدم الاستيقاظ فى تلك الساعة ..

***

واليكم حلما آخر .. فقد أمر الطبيب مريضة عقب اجراء عملية جراحية فى الفك أن تضع كيس الثلج على خدها ليلا ونهارا .. ولكنها ما أن تنام حتى تلقى به بعيدا وهى نائمة ، وعللت ذلك بأنها حلمت بأنها فى دار الاوبرا ، فقالت لنفسها « ما دمت فى دار الاوبرا فأنا بخير ولا حاجة بى الى كيس الثلج » .. وألقته بعيدا !

وواضح أن الغرض من هذا الحلم هو تحقيق أكثر من رغبة للمريضة .. فهى أولا شفيت ، وثانيا ذهبت الى الاوبرا وكانت محرومة من الخروج منذ مدة طويلة ، وثالثا وجدت مبررا للتخلص من كيس الثلج

***

وأسوق قصة حلم آخر :

كانت احدى السيدات تلازم ابنها المريض أسابيع متوالية ، وهو طريح الفراش بحمى معدية .. فلما زالت مرحلة الخطر رأت فى منامها صالونا أدبيا ومعها فيه مشاهير الكتاب الذين تحبهم ، فتبسطوا معها فى الحديث وسامروها ورفهوا عنها ، وكانت أشكالهم فى الحلم تماثل صورهم الشمسية ، فيما عدا « بريفو » الذى لم تكن السيدة تعرف صورته .. فظهر لها فى الحلم وله

وجه المبخر الذى جاء فى اليوم السـابق لتطهير حجرة ابنها المريض ..

ومن السهل أن نعرف الرغبة التى يعبر هذا الحلم عن تحقيقها ، وهى التخلص من هـذا الحبس والسـهر والتمريض المضنى الى أنواع أخرى من المتع الروحيـة والذهنية ..

***

أما بالنسبة للاطفال ، فان أحلامهم لابد أن تكون ذات صور أبسط من احلامنا .. لان قواهم النفسية لم تصل بعد الى درجة التعقـد والالتواء والتشابك التى لدى البالغين

وأحلام الاطفال هى فى الغالب تحقيق صريح وواضح للرغبات ، ولذلك فهى ليست مشكلة علمية من ناحيـة التأويل والتفسير .. ولـكن قيمها الـكبرى فى كونهـا دليلا على أن جميع الاحلام فى جميع الاعمار تسـتهدف تحقيق رغبة الحالم ..

ولذا أورد هنا أمثلة ونمـاذج من أحـلام الاطفـال ، سجلتها فور سماعها من أطفالى .. لانهم أقرب النماذج التى تحت يدى

وأبدأ بحلم ابنتى وعمرها يومئذ أكثر قليلا من ثمانى سنوات ، أخذناها الى رحلة فى الجبـال فى ناحيـة « هالشتاد » وصحبنا معنا أحد أبناء جيراننا وعمره اثنتا عشرة عاما ، وهو فتى لطيف وسـيم يبـدو أن آنستنا الصغيرة شغفت به ، وبعد يوم استيقظت من نومهـا وقالت لى :

ـ رأيت فى الحلم ان « اميل » صار من أفراد الاسرة .. يدعوك بابا ، ويدعو والدتى ماما .. وينام مع اخوتى الفتيان فى حجرة واحدة.. ودخلت ماما الحجرة ووضعت

تحت وسائدنا قطعا كبيرا من الشكولاتة ملفوفة فى ورق أزرق وأخضر

وكانت جميع أجزاء هـــذا الحلم واضحة لي ما عدا حكاية الشكولاتة ، فأسعفتنى زوجتى بأصل القصة .. ففى اليوم السابق عندما صحبت الام الاطفال جميعا الى المحطة ، رغبوا فى الوقوف أمام آلة يضع فيها المرء النقود فتقدم له قطعا من الشكولاتة ملفوفة فى ورق فضى متعدد الالوان .. ولـكن زوجتى لم تجد فى الوقت متسعا فلم توافق ..

وأما أن ينادينا « اميل » ابن الجيران « بابا » و «ماما» فمصدر هذا ان « اميل » تكلم عنا فى اليوم السابق بهذه الصفة فعلا على سبيل التأدب .. فانتهزت ابنتى هذا التعبير لتحلم أن « اميل » صار من أفراد الاسرة فعــلا بصفة دائمة ، وهى الرغبة التى كانت تخامرها .. ولمـا كانت صغيرة ولا تعرف شكلا للارتباط بمن تحبهم بحيث تجعلهم من أفراد الاسرة على الدوام سوى علاقة الاخوة .. فقد تصورته أخا لها ..

***

وانتقل الى حلم آخر لابنتى الصغرى ، وكانت سنها ثلاث سنوات تقريبا .. وكنا قد أخذناها فى نزهة لعبور البحيرة فى قارب ، وأعجبتها النزهة حتى انها استقصرت زمنها ، ورفضت أن تغادر الزورق عندما ألقى مراسيــه وملأت الدنيا صراخا .. وظلت تصرخ حتى وصلنا الى البيت ، وهناك نامت من شـــدة الاعياء ، ولما استيقظت قالت متهللة :

ــ ركبت الزورق وعبرت الى الشاطىء الآخر جمــلة مرات ..

وواضح أن هذا الحلم تحقيق مباشر لرغبتها ..

واسوق حلما ثالثا لابنى البكر ، اذ كان عمره ثمانى سنوات ، فقد رأى نفسه يركب العربة الحربيـــة مع « اخيل » البطل اليونانى .. وكان فى اليوم الســـابق يقرأ بشغف كتابا عن الاساطير اليونانية

***

وليس لنا من ســــبيل الى معرفة شىء عن أحلام الحيوانات ، ولـكن يظهر أن هناك اعتقادا شائعا بأنها تحلم .. فالمثل الشعبى يقول :

ـ حلم الاوزة بمكيال من الذرة ..

وهذا المثل تطبيق لنظريتى فى ان موضوع الاحـلام دائما هو تحقيق رغبة الحالم .. أيا كان مستوى هـذا الحالم



لماذا تتشوه الاحلام ؟

ويواجهنا الآن سؤال هو : ان من الاحلام ما هو مؤلم أشد الالم ومخيف مزعج .. فكيف يمكن أن ينطوى هذا اللون من الاحلام على تحقيق لرغبة الحالم ؟ واذا كان الغرض منها أساسا هو تحقيق رغبة الحالم ، فلماذا لم يسلك الحلم السبيل المباشر وآثر الالتواء والتشويه ؟ !

وهذا بطبيعة الحال يجرنا الى سؤال محدد هو : لماذا تتشوه صور أحلامنا فى كثير من الاحيان ؟ ..

وأرى أن أمهد للجواب عن هذا السؤال بعرض حلم آخر من أحلامى الشخصية ، قد أضطر فيه للكشف عن بعض تفاصيل حياتى الخاصة .. ولكن عزائى أن هذا التصريح قد ينير أمامنا المشكلة التى بين أيدينا تمام الانارة ..

فى عام ١٨٩٧ بلغنى أن اثنين من كبار أساتذة الجامعة زكيانى لشغل وظيفة أستاذ استثنائى .. فوقع منى هذا الخبر المفاجىء موقع السرور ، خصوصا وأن هذين الاستاذين الجليلين لم تكن تربطنى بهما صلات شخصية فلا محل للظن أنهما حابيانى ، بيد أنى نهيت نفسى عن الاعتماد كثيرا على تلك التزكية لان ترقية الاساتذة كانت خاضعة مباشرة لوزير المعارف ، وكثيرا ما تجاهل الوزير مثل هذه التوصيات ، وكم من زميل أقدم منى ظل سنوات يجرى وراء هذا الامل دون طائل ، وليس هناك ما يدعونى للتفاؤل بصفة خاصة .. فرتبت نفسى على

الفشل فى هذا المسعى ، ولم أجد فى ذلك كبير عناء لانى قانع بما عندى ، ونجاحى فى مهنتى يغنينى عن التماس هذا اللقب ..

وزارنى ذات يوم أحد الزملاء الذين أشرت الى طول انتظارهم عبثا لتلك الترقية ، ولكنه كان طموحا ، فلم يكف عن طرق أبواب كبار رجال الوزارة ملحفا فى الرجاء ، وروى لى كيف انتحى بأحد كبار الموظفين فى ذلك اليوم جانبا ، وطلب منه أن يصارحه بسبب المماطلة فى ترقيته ، وهل يرجع ذلك الى ديانته اليهودية وما يلقاه اليهود من اضطهاد .. فأفهمه الموظف الكبير بلباقة أن تيار الرأى العام لا يسمح للوزير فى الوقت الحاضر بترقية اليهود.. وقد أزعجنى هذا الحلم طبعا لاننى يهودى مثل هذا الزميل ، وان كنت قد وطنت النفس من قبل على الاستسلام للغبن الذى لا مفر منه ..

وفى الليل رأيت الحلم الآتى :

الزميل « ر » شكله شكل عمى وأشعر نحوه فى الحلم بانعطاف شديد .. وأجد وجهه يصاب أمامى بتغير ، فيزداد طوله وتنبت له لحية صفراء .. !

ولما استيقظت من نومى جعلت أضحك من سخافة الحلم ، ولكن الحلم جعل يراود ذهنى فقررت أن أحلله..

وأول عناصر الحلم أن « ر » له شكل عمى يوسف .. وهذا العم تورط منذ ثلاثين سنة فى عمل تجارى يحرمه القانون ، وضبط وأنزل به العقاب ، وكان أبى لايذكر هذا العم الا ويهز رأسه قائلا :

ــ يوسف ليس شريرا ولكنه أحمق .. !

فمعنى أن زميلى « ر » هو عمى يوسف فى الحلم ، مرادف للقول بأن « ر » أحمق ، ويؤيد هذا الرأى السمج أن « ر » بدا فى الحلم بلحية صفراء مثل لحية عمى فى حين

أن لحية « ر » كانت سوداء ، فلا محيص اذن من القول بأن مراد الحلم من هذه الصورة هو رمى زميلى « ر » بالسفاهة والحمق ، وهما صفتان تقترنان بالعم يوسف فى ذهنى ..

ولا أجد مبررا لهذا الوصف سوى رغبة الحلم فى أن يعزينى أو يشجعنى .. كأنه يريد أن يقول أن تخلف « ر » عن الترقية يرجع الى سبب غير التعصب الدينى ، انه سفاهة « ر » المزعومة .. وهذا من شأنه أن يقوى روحى المعنوية لانه سينفى أن تكون ديانتى سببا فى اضطهادى ..

ولكن لماذا شعرت فى الحلم نحو « ر » بانعطاف شديد حينما كنت أشعر انه عمى يوسف ؟.. هل كان هذا الشعور موجها نحو عمى يوسف أم نحو زميلى « ر » ؟

أما عن يوسف فلم أشعر نحوه فى أى يوم من أيام حياتى بانعطاف ، وأما زميلى « ر » فكنت أقدره ، ولكنى لم أشعر نحوه بهذه الدرجة من العطف .. فلماذا عمد الحلم الى المبالغة فى هذه الناحية ؟ .. فكأنما هذا الشعور الزائد حيلة من حيل الحلم يراد بها ستر حقيقة معينة عن ادراكى ، فرمى «ر» بالحماقة أمر كريه وظالم.. وكى يدارى الحلم هذا الظلم موهه بالعطف والانعطاف .. وكأنه تكفير موجه الى « ر » عما رميته به من مذمة بغير وجه حق ، انه أشبه بالكفارة أو « التقية » ، وهو نوع من السلوك نمارسه فى حال اليقظة فى كثير من الاحيان ، فالكاتب السياسى حين يخوض فى موضوعات يعلم أنها تغضب الحكومة يعلم أن ذوى السلطان يملكون مصادرة كتاباته أو معاقبته شخصيا .. فيعمد الكاتب اتقاء للرقابة وشرورها الى تمويه كتاباته واخفاء آرائه بعبارات ملتوية تظهر المدح وتبطن الذم والقدح ، ويخلع على

هجماته المسمومة سمات البراءة والمجاملات المعسولة ، وكلما اشتدت وطأة الرقابة زادت الحاجة الى التخفى والاتقاء ، وصار القارىء مطالبا بالفطنة كى يستشف ما بين السطور .. !

ونخرج من هذا بأن لدينا فى الحلم قطبان .. أولهما الرغبة التى يريد النائم أن يحققها ، والقطب الثانى هو الرقابة التى تحول دون تحقيـــق الرغبة اذا لم تحز رضاها .. والرغبة تنبع من اللاشعور ، فهى مثل حرس الحدود الذى يمنع غير المرغوب فيهم من الدخول ، وعلى غير المرغوب فيهم فى هذه الحالة أن يتنكروا فى أشكال وأزياء غريبة كى يفلتوا من الرقابة .. وهذا هو السبب فى الالتواء والتنكر أو التشويه الذى يصيب بعض صور الحلم فيسبب لنا ذلك عجزا عن الفهم أو آلاما أو خوفا .

***

وكى نبرهن على أن جميـع الاحلام ـ حتى المؤلمة ـ هدفها تحقيق الرغبة ، سأروى الآن أحلاما نموذجية من هذا النوع ، وبعض هذه الاحلام مما رواه مرضاى :

قالت لى احداهن .. وكانت مشهورة بذكائها :

ـ انى لاعجب من اصرارك على أن لا هدف للاحلام الا تحقيق الرغبات ، فما رأيك فى أننى حلمت حلما ليس فيه شىء الا رغبات لا سبيل الى تحقيقها .. فكيف يتفق هذا مع وجهة نظرك ؟

ـ ما هو هذا الحلم ؟

ـ حلمت انى انتويت اقامة مأدبة عشاء .. ولكن ما عندى من السمك المدخن كان أقل مما يجب ، ففكرت فى الخروج الى السوق لاحضر شيئا يصلح للاكل ، تذكرت أن اليوم الاحد وأن السوق مغلقة .. فلجأت الى

التليفون لاستنجد ببعض من أعرف فلم أجد فى التليفون حرارة ، فاضطررت للتنازل عن رغبتى فى اقامة تلك المأدبة

وأخذت أسألها عن ذكرياتها فى اليوم السابق للحلم ، فعرفت منها أن زوجها ـ وهو من تجار اللحوم بالجملة ـ أخبرها يومئذ بقلقه من ازدياد وزنه ، وأنه قرر أن يستيقظ فى الصباح الباكر للقيام بالتمرينات الرياضية ، وأنه ينوى أن يتبع نظاما صارما فى الطعام ، وأنه سوف لا يقبل أية دعوة للعشاء

ولا أجد فى هذا كله ما يوضح الحلم .. فأظل الاحقها بالاسئلة الى أن أتغلب على مقاومتها ، فتعترف لى أنها فى ذلك اليوم أيضا زارت صديقة تشعر نحوها بالغيرة لانها جميلة رغم نحافتها وزوجها يعجب بها ويثنى عليها ، وقد حدثتها هذه السيدة النحيفة عن رغبتها فى زيادة وزنها ، ثم سألت مريضتى : « وبهذه المناسبة متى تقيمين لنا احدى ولائمك الطيبة ذات المآكل الدسمة ؟ »

فلما سمعت هذه المعلومات ، تكشف لى المغزى الحقيقى للحلم ، وصار فى استطاعتى أن أقول لمريضتى :

ـ الآن أستطيع أن أحدد لك تلك الرغبة التى حققها حلمك ! فكأنك اغتظت من رغبة غريمتك فى اكل طعامك كى يزداد وزنها وتمتلىء أعطافها فيزداد اعجاب زوجك بها .. ونبتت لديك أمنية فحواها الا تقيمى مأدبة لأى انسان اكراما لخاطرها ، وخصوصا أن زوجك ذكرك فى اليوم نفسه أن ولائم العشاء هى التى تساعد على السمنة .. والآن بقى شىء ياسيدتى ..

ـ ما هو ؟

ـ أريد أن أعرف منك ما الذى يرتبط فى ذهنك بالسمك المدخن ؟

ــ أوه ! انه الصنف الذى تفضله تلك السيدة !

وها نحن أولاء نتبين أن المريضة قد عمدت فى الحلم الى حيلة الابدال فوضعت نفسها فى محل تلك السيدة التى تغار منها لان تلك السيدة تحتل عند زوجها مكانة تطمع هى فيها .. فهى تتمنى لو حلت محل صديقتها فى اعجاب زوجها ، ثم جعلت صديقتها المتمثلة فى شكلها لا تظفر بتحقيق أى رغبة من رغباتها ..

***

وسأسوق الآن حلما آخر لاحدى مريضاتي أيضا ، روته لى كى تدحض نظرية أن الحلم تحقيق رغبة ، وهذه المريضة شابة قالت لى :

ــ ان لاختى كما تعلم ولدا واحدا اسمه كارل .. اما أخوه البكر أوتو الذى كان الاثير عندى فمات منذ مدة .. وأنا لا أنكر أنى أحب كارل ، ولكن ذلك الحب لا يعد شعرة بالنسبة لحبى لاخيه الراحل الذى ربيته وكأنه ابنى ، والليلة الماضية رأيت فى المنام أن كارل أيضا قد مات ، وأنه مسجى فى نعشه ، ومن حوله الشموع .. وكان المنظر كله مطابقا من جميع الوجوه لليلة وفاة أوتو التى تعلم كم كانت قاسية على نفسى ، فقل لى ما معنى هذا الحلم ؟ .. هل معناه أنى أتمنى أن تفقد أختى طفلها الوحيد ؟ أم معناه أنى أتمنى لو كان الميت هو كارل لا أوتو ؟

وقد ساعدنى على معرفة التفسير الصحيح ، اننى كنت على دراية تامة بتاريخ هذه الشابة النفسى والعائلى ..

كنت أعلم أن هذه الشابة فقدت أبويها فى طفولتها ، فتربت يتيمة فى كنف أختها الكبرى .. وفى بيت تلك

الاخت تعرفت برجل من أصدقاء الاسرة تعلق به قلبهـا ، وأوشك الزواج أن يتم لولا أن أختها الـكبرى أحبطت المشروع ، وحولت الفتاة كل عواطفها نحو ابن شقيقتها أوتو ، ثم مات أوتو فجأة ، فكاد الحزن أن يهدها ، وغادرت بيت أختها لتعيش بمفردها وتحاول عبثا التخلص من ذكرى ذلك الحب الفاشل .. وان كانت عزة نفسـها لاتسمح لها بالسعى الى تجديد العلاقة ، فصار كل حظها من لقياه ، أن تذهب لمشاهدة المحاضرات العـامة التى يلقيها ذلك الحبيب لانه كان من رجال الفن والادب ، وكان آخر حفل من هذا القبيل فى اليوم السابق على الحلم ، ولـكن محاضراته كانت قليلة ومتناثرة ..

وسألتها :

— هل حضر الاستاذ الى بيت أختك يوم وفاة أوتو ؟

— طبعا .. حضر بعد انقطاع طويل ، ووقف بجوارى أمام تابوت أوتو الصغير الذى تحيط به الشموع ..

— ان هذا هو المضمون الاساسى لحلمك الليلة .. فلو أن كارل مات لصار من المحتم أن يحضر الاستاذ كما حضر يوم وفاة أوتو للعزاء ، ولاتيحت لك الفرصة لرؤياه عن قرب ..

وواضـح أن الشـابة ذات كبرياء .. وأنها لا تسمح لرغبتها فى الاجتماع بحبيبها أن تظهر .. فتحتال على فرصة لقائه بذلك الافتراض الذى يحز فى القلب حزا ..

ونلاحظ أن الصور الاليمة التى تلجأ اليها هـذه الاحلام تزداد كلما اشتدت ممانعة الرقابة فى ظهور الرغبة المنشودة ، وما أشبه ذلك بأعمال التنفير والتقبيح التى تستخدم فى الماكياج والتنكر استخداما مفرطا ، كلما كان

الشىء المراد اخفاؤه ممنوعا منعا باتا ويترتب على ضبطه عقاب صارم ..

فتشــويه الحلم وتبشيعه وشحنه بالفواجع والآلام ، انما هو أثر من آثار الرقابة المشددة مثلما تخفى الاسلحة المهربة فى تجويفات داخل الـكتب ، أو تخفى المخدرات داخل نعش ميت !

وعلى هذا نستطيع أن نقول ان أى حلم انما هو فى الغالب تحقيق لما يكون مقنعا وملتويا لرغبــة تكون فى معظم الاحوال مكبوتة أو مكبوحة !





الفصل الثالث

عناصر الحلم ● أحلام نموذجية



عناصر الحلم

ان أول ما أسجله ، بناء على تجربتى الشخصية ، هو أن الحلم له صلة دائما بأحداث اليوم السابق على الحلم ، وقد ثبتت لدى صحة هذه النظرية من احلامى كلها ، ومن كل الاحلام التى فسرتها لاصدقائى ومرضاى ، ولذا فان اول ما أبدأ به عند الشروع فى تفسير أى حلم هو أن أنقب فى أحداث اليوم السابق .. وقد دلت التجربة على أن هذا البحث منتج الى حد كبير ..

وسأذكر الآن بضعة من أحلامى الخاصة تثبت الصلة الوثيقة بين صور الحلم أو عناصره وبين أحداث النهار السابق مباشرة ..

وأبدأ بالحلم التالى :

أجد نفسى اقصد بيتا فلا استطيع أن ادخله الا بعد صعوبات كثيرة .. وأثناء هذه المحاولات تقف سيدة فى انتظارى ..

والحادث الذى يرتبط بهذا الحلم هو ما حدثتنى به احدى السيدات فى تلك الامسية بأنها اضطرت أن تنتظر طويلا فى بعض المتاجر الى أن تسلمت البضائع التى اشترتها ..

وحلمت فى مرة أخرى أنى أعددت بحثا عن نوع من النبات ..

وكان الحادث المرتبط بهذا انى رأيت فى اليوم السابق

فى واجهة مكتبة مررت بها فى الطريق بحثا لفت نظرى عن نبات معين ..

ورأيت حلما ثالثا انى ذهبت الى احدى المكتبات لادفع قيمة الاشتراك السنوى لمجلة علميـــة وقـــدره عشرون فلورينا ..

وواضح من هذه الامثلة أن للاحداث التى وقعت فى اليوم السابق مباشرة على الحلم صـــلة ما بما فى الحلم ، ولـــكن ربما سأل سائل : هـــل من الضرورى أن تكون للحلم صلة بأحداث اليوم السابق ، أم يكفى أن يكون الحادث فى يوم قريب بوجه عام ؟

وأنا لا أرى فرقا كبيرا بين الافتراضين .. ولـــكنى افضل أن أبدأ بأحداث اليوم السابق لافتش فيها عن المصدر المباشر للحلم ..

وقد يكون الحلم بريئا جدا فى مظهره ، ولـــكن هـــذه البراءة قد لا تكون الا قناعا تنكريا للافلات من الرقـــابة المفروضة على الشعور ، ولذا أحب أن أعرض هنا نماذج لتلك الاحلام البريئة الخادعة فى براءتها ..

***

وأبدأ بحلم لسيدة مثقفة من النوع الذى لا يظهر ما فى سريرته ، وتتمسك بالبراءة فى مظهرها .. قالت :

ــ رأيته فى المنام انى ذهبت الى السوق ، ولـــكنى وصلت متأخرة فلم أستطع الحصول على شيء .. لا من القصاب ولا من بائع الفاكهة ..

ويبدو هذا الحلم تام البراءة لاول وهلة .. ولـــكنى لم اطمئن الى هذه البراءة ، فرحت أستوضحها عما اتبعته عادة عندما قررت الذهاب الى السوق .. فقالت انها حينما تمضى الى السوق يصحبها الطاهى وهو يحمـــل

السلة ، وفى الحلم سألت القصاب عن صنف معين ، فقال لها أنه من المستحيل الحصول عليه الان ، وعرض عليها صنفا آخر وهو يزكيه .. ولكنها تركته وذهبت الى بائعة الخضر والفاكهة فاذا بها تعرض عليها نوعا لاتعرفه من الخضر أسود اللون مربوط فى حزم ..

فقالت الحالمة :

ـ هذا شيء لا اعرفه فلا استطيع أن آخذه ..

وتبين من المناقشة أن هذه السيدة كانت قد ذهبت فعلا الى السوق فى اليوم السابق ، فوصلت متأخرة ورجعت من غير أن تشترى شيئا لان محل القصاب كان مغلقا .. !

وكان من الممكن أن نعتبر الحلم اشارة الى ما حدث بلا تعديل ، لولا أن هذه الاحلام البريئة تحتاج الى كثير من « الخبث » فى تفسيرها .. ففى اللغة الالمانية تعبير مبتذل يستعمل فيه محل القصاب المفتوح كناية عن اغفال الرجل اقفال فتحة بنطلونه من الامام .. ومثل هذه الكناية ترجح كفتها اذا ربطنا بينها وبين نوع الخضر الذى عرضته عليها البائعة ، فهو شيء أسود اللون طويل مربوط فى حزم .. وهو فى مجموعه اشارة الى شيء جنسى ، فمحل القصاب فى الحلم مفتوح ، وهو يغريها بقبول شيء لا تريده فتنصرف لتعرض عليها بائعة الخضر شيئا يظهر فى الحلم أوضح دلالة على الفعل الجنسى ، ولكنها تنكر معرفته ، وتعرض عنه !

وليس يعنينا الآن بقية مدلول الحلم ، وانما حسبنا فى هذا المقام أن هذا الحلم البريء كان له مضمون ليس بريئا كل البراءة !

***

ورأت هذه السيدة البريئة المظهر شيئا آخر .. رأت

أنها تضع فى الشمعدان شمعة كبيرة ، ولكن الشمعة تلين فى يدها ولا تقف كما تريد منها فتقول لها زميلاتها انها خائبة .. ولكن المعلمة تقول انها غير مسئولة ..

وقد حدث فى اليوم السابق أن الحالمة حاولت وضع شمعة كبيرة فى الشمعدان ، ولكن لم يحدث أنها لانت فى يدها .. بل كانت على ما يرام ، وقد أخذ الحلم الشمعة واستخدمها فى « أغراضه » الخاصة ، ومن المعروف أن الشمعة الغليظة رمزجنسى ، لان لينها وعدم وقوفها أثناء الاشتمال هو كناية واضحة عن العجز الجنسى للرجل .. واذا كان العجز منسوبا الى الرجل فالسيدة غير مسئولة عن تلك الخيبة ..

وواضح من هذين الحلمين البريئين أن الجنس هو السبب فى اشتداد الرقابة الشعورية ضد تحقيق الرغبة الجنسية — كما هو مألوف — فأدى ذلك الى استخدام رموز وصور ملتوية لاخفاء معالم تلك الرغبة ..

***

وقد لاحظت أيضا أن الحلم كما يستخدم أحداث اليوم السابق قد يشير أيضا الى أحداث موغلة فى القدم وقعت فى فترة الطفولة الاولى ، بحيث يخيل للانسان أن ذاكرته قد أتت عليها ولم يعد فى المستطاع استعادتها ..

ويحضرنى بهذه المناسبة حلم طريف رواه لى بعض المواظبين على حضور محاضراتى ، وكان يؤكد لى أن أحلامه كلها صريحة ليس فيها التواء أو تشويه ..

روى لى هذا الشخص أنه رأى فى المنام المدرس الذى كان يشرف على تعليمه فى البيت — وهو طفل — نائما فى سرير واحد مع مربيته الشابة التى لم تترك البيت الا عندما صار الحالم فى سن الحادية عشرة ، وقد حدثت

وقائع هذا الحلم فى نفس اطار البيت القديم الذى أمضى به صدر طفولته

ولما روى ذلك الحلم لشقيقه الاكبر ضحك ، وقال له ان حلمه قد وقع فعلا ، واكد له أنه عندما كان ــ أى الاخ الاكبر ــ فى السادسة من عمره ، كان المدرس وعشيقته المربية يسقيانه الجعة اذا ما سهر الوالدان خارج البيت فيغيب عن وعيه ، وأما الاخ الاصغر ــ صاحب الحلم ــ فكان فى الثالثة من عمره ولا يخشى من فطنته ، فلا يبالى العاشقان أن يناما فى فراش المربية معا .. مع أن الطفل الصغير يحتل فراشا فى نفس الحجرة !

وهناك نوع من الاحلام يسمى الاحلام الراجعة .. وهو عبارة عن حلم يعاود الشخص ــ منذ فترة طفولته الى أن يكبرــ فى الحين بعد الحين من غير تعديل تقريبا. وليس لدى محصول كبير من هــــذه الاحلام .. ولم يقع لى شخصيا شىء منها ، ولـكنى أذكر هنا حلما لطبيب من أصحابى جاوز الثلاثين كان يرى بين الحين والحين منـذ طفولته أسدا أصفر اللون يظهر فى أحلامه ، ولم يزل يظهر له الى الوقت الحاضر ، وكان هذا الاسد من الوضــوح بحيث يستطيع وصفه وصفا دقيقا ، وظل يجهل مصدر هذا الحلم الى أن عثر بين متروكات طفولته على تمثال لاسد أصفر ، كان يلعب به وهو طفل ثم نسى أمره .. واخبرته أمه أن هذا الاسد كان لعبته المفضلة ، مع انه كان قد نسى أمره تمام النسيان ..

وليس من الضرورى أن تكون مشاهد الطفولة التى طمرها النسيان متمثلة فى أحلام كاملة ، بل يكفى أن تعود تلك الذكريات الطفلية فى لمحة واحدة من لمحات الحلم دون أن تكون لبقية أجزاء الحلم صلة بتلك الذكريات

وسأذكر هنا حلم سيدة مسنة اندمجت فيه مجموعة من ذكريات الطفولة فى صورة واحدة :

حلمت هذه السيدة العجوز انها خرجت لشراء بعض لوازمها ، وكانت مسرعة فى سيرها فوقعت على ركبتيها فى الشارع ، وتجمع الناس من حولها وكان أكثرهم من سائقى العربات .. ولكن أحدا منهم لم يساعدها على النهوض ، وتحاول هى النهوض أكثر من مرة ولكن بلا طائل ، واخيرا تنهض واقفة وتجد نفسها داخل عربة تقودها الى منزلها ، فيقذفها الواقفون من نافذة العربة المفتوحة بسلة خضر كبيرة ملآنة بالحاجيات ..

وواضح أن المشي بسرعة والوقوع انما هو رجوع بهذه العجوز الى مرحلة طفولتها ، وعندما سألتها عرفت أن بين ذكريات طفولتها الاولى منظر شاب فى السابعة عشرة من عمره يسقط فى الطريق على أثر اصابته بنوبة صرع ، فأحضره الناس الى البيت فى عربة .. ولم تكن رأت هذا المنظر بعينيها ولكنه روى لها ..

ومما لاشك فيه أن السقوط فى الاحلام ذو معنى جنسى ، فحين تسقط المرأة فهى ساقطة بمعنى الآثمة أو العاهرة .. والشارع الذى سقطت فيه هوشارع جرابن، وهو مكان تكثر فيه أولئك النسوة !

واذا أضفنا الى ذلك أن هذه السيدة تزوجت فى مقتبل عمرها رجلا اقل منها فى المستوى الاجتماعى والمالى ، فاضطرت أن تذهب الى السوق بنفسها حاملة سلة الخضر كأنها من زمرة الخدم .. فمعنى وقوف الحوذية من حولها ينظرون اليها ولا يساعدونها أنهم يزدرونها .. ومعنى قذفها بالسلة هو تعييرها بأنها نزلت الى مستوى الخدم !

ولكن لماذا الحوذية بالذات ؟ .. ان ذلك له صلة

بذكرى بعيدة من ذكريات الطفولة ، حين طردت احـدى خادمات الاسرة بعد افتضاحها بعلاقتها بحوذى ، ولعل هذا هو الارتباط فى الحلم بين الحوذية وبين السقوط !..

***

والآن اعرض حلما حلمته أنا شخصيا .. فقد نمت وأنا جائع مجهد ، فحلمت أني دخلت المطبخ التمس شيئا آكله .. فاذا ثلاث نســاء احداهن ربة البيت ، وكانت تصنع فطيرا ، فطلبت منى أن أنتظر الى أن تفرغ من صنعه .. فأستاء وأغادر المطبخ وأرتدى معطفا طويلا جدا ، فأخلعه لهذا السبب وأرتدى معطفا آخر طويل الذيل عليه وشي تركى ، ويأتى رجل لا أعرفه مستطيل الوجه مدبب اللحية ليمنعنى من ارتداء هذا المعطف ، قائلا انه يخصه.. فأعجب لذلك وأريه الزخارف التركية فيقتنع بذلك ، ثم تنعقد بيننا صداقة

ولما بدأت فى تحليل هذا الحلم ، ساقنى ذلك الى أول قصة قرأتها وأنا فى الثـالثة عشرة ، وبطلهـا ينتهى الى الجنون وهو يردد أسماء النسوة الثلاث اللواتى أثرن فى حيـاته أكبر الاثر ، وكلمة « النســوة الثلاث » تذكرنى بآلهات القدر الثلاثة .. واحداهن هى الام ، والشعور بالجوع هو الذى يربطنى بمصدر الاشباع عند الطفل وهو الام ، وأما أن المرأة التى رأيتها فى المطبخ كانت تفرك يديها كمن تصنع فطيرا ، فانها تذكرنى بأمى لا لانهاكانت تصنع الفطير بل لاننى سألتها وأنا فى السادسة من عمرى كيف أعرف أن الله خلقنا من طين كما جاء فى التوراة ، وكانت أمى شديدة التدين وسليلة علماء أتقياء من حملة التلمود ، ففركت يديها بشدة فرأيت فتائل سوداء تشبه الطين .. فكان هذا برهانا كافيا لاقناعى على أن البشر من تراب والى تراب يعودون !

أحلام نموذجية

هناك أحلام تجرى على غرار واحد عند الجميع .. فلا يكاد يختلف فيها حالم عن حالم ، ولا يكاد يختلف فيها المعنى على حسب الحالمين ..

ولعل سائلا يسأل عن علة وحدة الصور واللغة والدلالة فى هذه الاحلام ، فى حين تختلف الصور والدلالة فى الاحلام الاخرى ..

والجواب أن هذه الاحلام التى تجرى على منوال واحد تستمد وحدتها وتشابهها من صدورها عن علة واحدة لدى سائر الناس ..

وهذا هو السبب فى أننا نهتم اهتماما خاصا بهذا النوع من الاحلام ، ويرجى أن نخرج من دراسته بمزيد من الفهم عن الاحلام ..

وسأبدأ الآن بتناول أنواع من هذه الاحلام النموذجية ذات معان محدودة ..

١ ـ أحلام الخزى بسبب العرى

هناك أحلام يرى الحالم فيها نفسه عاريا كما ولدته أمه ، أو متجردا من جانب هام من ثيابه المفروض الا يظهر أمام الناس بدونه ، ولكن ربما رأى الحالم نفسه على هذه الصورة ، ولم يشعر بالخزى على الاطلاق .. وفى هذه الحالة لا يهمنا أمر حلمه ، وانما يهمنا فقط الحلم الذى يشعر فيه الحالم بالخزى لتجرده من كلّ ثيابه أو

بعضها بحيث يتمنى لو توارى عن العيون ، بأى شكل من الاشـكال ، الا انه يتسمر فى مكانه وكأن قوة أكبر منه تمنعه من الحركة .. فمثل هذا الحلم هو الذى نسميه حلما نموذجيا .. فلباب قيمته هو الاحسـاس بالخزى ، ثم العجز عن علاج موقفه ، وشعوره بالابتئـاس لذلك العجز !

والحقيقة انه من النادر أن يكون العرى فى مثل هـذا الحلم عريا تاما .. بلْ يكفى جدا أن يكون عريا جزئيـا ، انما المهم هو الشعور القوى بالخزى مع ان الجزء الناقص من الثياب قد لا يبرر اطلاقا كل هذا الخزى .. بل قد لا يكون هناك عرى على الاطلاق ، وانما هو مجرد اهمال فى طريقة الهندام .. فان كان الحالم من العسكريين يكفى أن يكون حزامه مفتوحا ، وأزراره غير لامعة ، أو ان يكون بنطلونه مدنيا .. ولـكن لابد على كل حال أن يشعر الحالم بشحنة قوية من الخزى نتيجة لذلك النقص ..

والغالب أن الذين يرى الحالم نفسه شـديد الخزى امامهم أشـخاص غرباء ، ملامحهم غير معـروفة وغـير واضحة .. وهم لا يبدون اى اهتمام بنوع العرى الذى كان مصدر خزى الحالم ، وكأنهم لا يلحظون وجوده اطلاقا

فمن العلامات المميزة لذلك الحلم النمطى ، تقابل خزى الحالم لعريه أو شذوذ زيه وعدم اكتراث الناس.. فكأن العرى أو شذوذ الملبس أنتج احسـاسـا متناقضـا لدى الحالم ولدى من يشاهدونه فى الحلم ، اذ كان المفروض أن يكون لخزى الحالم صدى من دهشة الناس أو تساؤلهم أو فضولهم او استهجانهم ، وفى اعتقادى أن حب الانسان لنفسه وحرصه على تحقيق رغباته هو الذى جعله يحور الحلم ليحل عدم الاكتراث بالجمود محلَّ الامتعـاض او الفضولْ .. اما شعور الحالم بالخزى ، فأرجح أن الذى

منع من اخفاء معالمه أو ابداله عامل أقوى من ذلك ، والمهم أن التناقض بين الخزى وعدم الاكتراث يتوفر لهـــذا النموذج من الاحلام

وهنا تناقض خليق لان يدلنا على أن تلك القـــوى الخفية التى تبقى على شعور الخزى انما هى رغبة جنسية محرمة ، عليها رقابة شديدة جداً من الوعى تصر على أن تكبتها ..

ومن تجاربى فى تحليل مرضاى الذين عرضت لهم مثل هذه الاحلام ، أستطيع القول أن محتوى الحلم ينقـل ذكريات ممعنة فى البعد من ذكريات الطفولة ..

وتعليل ذلك أنه لم يكن هناك وقت نظهر فيه عراة تماما غير صدر طفولتنا .. ولم يكن هذا العرى مصدر خزى لنا ، ومن استطاع أن يلاحظ الاطفال الصغار حين تسنح لهم فرصة التعرى من ثيابهم سيراهم يتهللون فرحا لتلك الفرصة ، ويتراقصون مزهوين باستعراض ما كان مغطى من أجزاء أجسامهم ، والغالب أن تصـيح الام موجهـة أطفالها وداعية اياهم الى الاحتشـام ، ومذكرة اياهم أن هذا عار لا يليق ..

وتصور السعادة فى العرى ، انما هو رجوع بالمرء الى تلك الفترة الاولى من الطفولة السعيدة .. بل ان تصور الفردوس المفقود للبشرية انما هو تصور لحالة الطفـولة العارية ، بدليل أن الناس فى الفردوس كانوا عرايا تماما لا يستر أجسامهم شىء ولـكنهم مع ذلك لا يشـعرون بالخجل ، الى أن وقعت الواقعة المشـهورة وأدركوا أنهم عرايا فأخذوا يقصفون من أوراق شـــجر الفردوس ليستروا عوراتهم لانهم احسوا بالخزى الشـديد ... واعقب ذلك حكم الطرد من الفردوس ..

ومنذ ذلك التاريخ والبشرية تمضى فى التربية الجنسية

والتربية الاجتماعية التى تحرم هذا العرى غير المكترث..
ولكن أحلامنا تستطيع أن ترتد بنا الى ذلك الفردوس المفقود ، وهذا ما يسمى بالاحلام الاستعراضية

والآن نريد أن نتكلم عن الاحلام الاستعراضية ..

هل يرى الحالم نفسه على صورته فى أيام الطفولة وهو عار ؟

كلا .. بل يرى نفسه فى عمره وقت الحلم ، وقد لايرى نفسه عاريا تماما لان الرقابة الشديدة تمارس نشاطها ، وتمنعه من الوصول الى تلك الدرجة من الاستباحة .. ونلاحظ أيضا أن من يبدو أمامهم ناقص الثياب خزيانا أشخاص غرباء ليس له بمعرفتهم سابق عهد ..

وهنا موضع للعجب .. ان الاشخاص الذين كنا نهتم بهم اهتماما جنسيا فى طفولتنا لا يظهرون فى أحلامنا الاستعراضية اطلاقا ، الا فى حالة المصابين بالبارانويا دون غيرهم .. بل المألوف أن يختفى هؤلاء الاشخاص ، ونرى فى مكانهم مجموعة من الغرباء لا يكترثون اطلاقا للمنظر الاستعراضى الذى يقوم به الحالم ويخجل منه ، وهذا النوع من الابدال فى الاحلام مألوف .. وبفضله يحل غرباء محل الشخص المشتهى الذى من أجله قام الحالم باستعراضه العارى

وهذه الحيلة التى بها يضع الحلم مجموعة من الاشخاص الغرباء مكان الشخص المشتهى ، معناها فى لغة الحلم رغبة الحالم فى أن يجرى استعراضه لجسمه أمام أنظار المحبوب خلسة وخفية عن أعين الغرباء .. فعدم اكتراث الغرباء — وكأنهم لا يرون — معناه أن الاستعراض العارى يتم من غير أن يلاحظه الغرباء

ومجمل القول أن هناك رغبات تعودنا كبتها منذ عهد الطفولة لانها ممنوعة أو محرمة .. ولكنها تخترق

اللاشعور ، وتظهر فى أحلامنا مقنعة ، حتى تخدع الرقابة الشعورية .. ومن أهم هذه الاحلام بلا شك أحلام العرى الاستعراضية ..

٢ ـ عندما يموت الاحياء

وهناك نوع آخر من الاحلام النموذجية ، نرى فيها شخصا من أحبائنا الاحياء وقد مات .. وربما كان هذا الشخص والدا أو والدة أو أخا أو ابنا او زوجة

ومن الواجب أن نفرق بين نوعين من هذه الاحلام ، هما الاحلام التى لا يهتز فيها وجدان الحالم لذلك الموت حتى انه يلوم نفسه أشد اللوم على جمود عواطفه حين يستيقظ ويتذكر الحلم ، وهناك أيضا أحلام يشعر فيها الحالم بفداحة الرزء ويسح فيها دمعه مدرارا ، أما النوع الاول الذى لا يهتز فيه وجدان الحالم للفجيعة ، فليس الحلم النموذجى الذى نسعى هنا وراءه .. وانما هو حلم يرمى الى تحقيق رغبة أخرى خفية ، ويكفى أن أشير هنا الى حلم تلك الشابة التى رات فى منامها ابن أختها الوحيد مسجى فى تابوته ومن حوله الشموع .. ولم تحزن لموته ، فالحقيقة أن الرغبة التى يسعى حلمها لتحقيقها ليست وفاة ابن الاخت بل خلق فرصة لمقابلة حبيبها ، وعلى هذا الاساس لم يكن هناك ما يدعو للحزن اذا نظرنا الى المحتوى الباطنى للحلم !

ولكن الاحلام التى تقترن عند موت شخص عزيز بحزن أو بكاء ، فمحتواها الحقيقى هو الرغبة فى موت ذلك الشخص !

وأنا أعلم أن الكثيرين يستنكرون هذا الكلام .. ولذا سأجتهد فى اقامة البرهان بقدر الامكان على صواب وجهة نظرى ، وسيكون ذلك عن طريق تفسير الاحلام التى بين يدينا ..

اذا حلم حالم أن أباه مات مثلا ، فليس معنى ذلك أنه يريد له الموت فى الوقت الحاضر بل معناه أن هناك ذكرى مدفونة من زمن بعيد .. من عهد الطفولة مثلا ، تتضمن هذه الرغبة التى كبتها اللاشعور ، فمعنى تحقق رغبة فى الحلم لا يقتضى أن تكون رغبة حالية ، بل مجرد رغبة ساورت الحالم فى عهد من عهود طفولته الاولى !

وانا أذكر هذا التحفظ ، وأنا متيقن من أن الكثيرين لن يقنعوا به ، ويستنكرون أن يتمنى طفل موت أبيه فى أى لحظة من لحظات حياته ، وسينكرون بشدة أن يكون مثل هذا الخاطر خامرهم شخصيا فى أى يوم من أيام حياتهم ، حتى فى الطفولة !

ولذا نجد من المناسب أن نمهد لهذه الفكرة ببحث علاقة اى طفل باخوته .. فهناك خطأ شائع أن علاقة الطفل باخوته تقوم على الحب مائة فى المائة ، أليس من المألوف أن نجد بين الاخوة البالغين فنونا من العداء والتنابذ ؟ .. ان من السهل أن نتتبع جذور هذا العداء لنجدها متأصلة فى السنوات الاولى من الطفولة ..

بل ان من اليسير أن نعرف اخوة بالغين تربطهم اليوم صلة المحبة ، وكانوا بشهادة الجميع فى طفولتهم لا يكفون عن الشقاق والشجار .. فلا بد بين الاكبر والاصغر فى الاخوة الاطفال من عداء يقوم على السيطرة من جانب ، وعلى الشعور بالقهر والاذلال من جانب آخر .. ولا بد للاحقاد فى هذه الفترة من أن تتأصل ، ولكن ليس معنى ذلك انطواء نفوس أولئك الاطفال على الشر ، لان هذه المرحلة من الانانية وتنازع الآطماع تتلوها فى الغالب مرحلة أخلاقية تقوم على الايثار .. والايثار هو عملية سيطرة من الرقابة الشعورية على النوازع الفطرية الانانية ، فتكبحها أو تحولها الى صورة أسمى ..

وحينما يتوقف هذا التحول الخلقى - قبل تمام النمو - يظل الشخص أنانيا يرفض أن يرى شيئا سوى مطالبه الخاصة ، فيندفع الى تحقيقها غير مبال ، وقد نسمى هذا انحرافا ، وهو ليس فى حقيقته الا توقف عن النمو النفسى .. !

ومهما يكن من شىء ، فمن المسلم به أن الكثيرين ممن نراهم فى حال كبرهم يعزون اخوتهم كل الاعزاز ، ويبرونهم ، ويستهولون فجيعة فقدهم، أنما كانوا يضمرون لهؤلاء الاخوة أنفسهم فى عهد الطفولة رغبات انتقامية سيئة جديرة ان تتحقق فى أحلامهم وهم كبار !

ولا أحب أن أترك هذا الموضع من غير أن الفت نظر القارىء الى أمر شائع فى جميع البيوت ، حين يولد طفل جديد للاسرة ، فاذا بالطفل الذى قد يكون فى الثالثة أو الرابعة من عمره يجد نفسه موضع منافسة ومزاحمة من وليد طارىء ، فيبدى من ألوان الضيق به والغيرة منه والعدوان عليه ما هو شائع معروف ..

وأنا أعرف شخصيا طفلة لم تتم العام الثالث من عمرها ، حاولت محاولة جدية أن تخنق بيديها الصغيرتين شقيقها حديث الولادة .. فليس أشد من غيرة الاطفال الصغار ، ولا أصرح منهم فى الاعراب عنها ..

واذا فرضنا أن الوليد الجديد حقق رغبة الاخ أو الاخت فودع الحياة بسرعة ، فان الاخ أو الاخت لابد أن يشعر بالارتياح للتخلص من هذا المزاحم الفضولى .. ولكن هذه الراحة لا تدوم ، فاذا بالطبيعة تفعل فعلها واذا بمولود جديد يظهر فى البيت ويستأثر بالرعاية والعناية والاهتمام ، ومن الطبيعى فى هذه الحالة أن يتمنى الطفل حدوث نفس المكروه المريح مرة أخرى ، ولا يمنع ذلك الا أن يكون الشقيق الاكبر أختا ، وأن تكون قد بلغت

من السن ما يبدأ فيه لديها نشاط الامومة .. فتعامل هذا الوليد الصغير وكأنه دميتها التى تدللها وتتبناها..

وكل هذا جدير أن يؤصل لدى الاطفال الصغار رغبات خبيثة وتمنى الموت لاخوتهم .. ثم ينمو تكوينهم الاخلاقى فيدركون شناعة هذه الرغبة ويكبتونها فى اللاشعور ، وهذا ما يجعلها تظهر بعد سنوات طويلة فى الاحلام ..

ومن النادر حين أستعرض أحلام مرضاى أن يخلو أحدهم من الحلم بوفاة أخيه أو أخته بصورة أو اخرى ..

وأطرف حلم من هذه الاحلام ما روته احدى مريضاتى، فقد رأت فى منامها وهى فى السنة الرابعة من عمرها حشدا من الاطفال الصغار ، جميعهم من اخوتها وأقاربها بنين وبنات يحبون فوق أرض حقل أخضر ، وفجأة نبتت لهم أجنحة وطاروا جميعا أمام عينيها الى أن اختفوا فى الجو وهى تنظر اليهم ..

وهو حلم يبدو لاول وهلة ولا علاقة له بالموت .. ولكن بعد الاستقصاء والتحليل علمت أنها قبل ذلك الحلم كانت قد سمعت بوفاةطفل من أقاربها ، فسألت ذويها ماذا يحدث للاطفال الذين يموتون ، فأخبروها أنهم يتحولون الى ملائكة ذوى أجنحة ويطيرون بعيدا الى السماء !

واذا عرفنا هذا ، فمن السهل أن نتصور المضمون الحقيقى لحلم صغيرتنا الذى يبدو لطيفا بريئا .. لقد رأت جميع أقاربها وأصدقائها الصغار يتحولون الى ملائكة ويطيرون كلهم فيغيبون فى السماء وتبقى هى وحدها ، وهذا معادل للقول بأنهم جميعا ماتوا ، ولم يبق على قيد الحياة سواها ، وهذا الحلم انما هو تحقيق لرغبة الحالمة الخفية فى أن يموت كل الأطفال فى الوسط الذى تعيش

فيه وتنفرد هى بالاعزاز والرعاية

والعادة الجارية ألا يشهد الاطفال احتضــار الموتى ، ولذلك لا يعرفون عن الموت سوى أنه غياب الشخص ، وهذا قريب فى ذهن الصغار أن يقترن بالراحة من ازعاج هذا الشخص اذا كان مصدر ازعاج له .. !

واذا فرضنا أن طفــلا صغيرا تركت مربيتــه الخدمة لسبب من الاسباب وبكى لغيابها ثم يئس من عودتها .. وبعد عام أو عامين ماتت أمه الحقيقية ، فمن الطبيعى أن يحس بنوع واحد من الاحساس فى الحالتين لان وقعهما عنده واحد .. !

ونحن نبالغ كثيرا فى نسبة الاحساس المرهف للاطفال بالنسبة للغير ، فمن الملاحظ أن الصغار لا يهتمون كثيرا لغياب أى فرد .. وهذا ما يثير بعض الامهــات اللواتى يفارقن صغارهن بعض الوقت لاسباب ضرورية ، مثــل زيارة ذوى القربى فى بلد بعيد لمدة قد تطول الى أسابيع كثيرة .. حتى اذا عادت الام أزعجها أن صــــغارها لم يسألوا عنها أثناء غيابها مرة واحدة

ومثل هذا الموقف من الصغار حرى أن يجعل الطفل لا يكترث كثيرا اذا رحلت الام رحلتها الابدية وهو صغير، وان كان سيذكر ذلك الحادث فيما بعد .. فالموت فى نظر الصغير ليس الا مجرد غياب ، ومن الطبيعى اذا أضمر فى لا شعوره الرغبة فى غيــاب شــخص آخر ليتخلص من مضايقاته أن تتخذ هذه الرغبة صورة الموت .. فرغبــة الموت فى الاحلام ليست فى حقيقتها ســـــوى الرغبة فى التخلص من شخص

ويبقى بعد ذلك سؤال وجيه : اذا وجدنا تبريرا من طفولة الشخص لتمنيه وفاة اخوته ، فكيف يمكن أن نفهم الاحلام التى تدل على رغبته فى وفاة والديه أوأحدهما .

وهو يدين لهما بالحياة ، ولم يعرف منهمـــــــا الا الحب والرعاية ، ومن دواعى أنانيته أن يرجو لهما طول البقــاء لان راحته وتلبية رغباته ومطامعه مرهونة بوجودهما على قيد الحياة ..

ان الاجابة عن هذا السؤال ستحيلنا حتما الى ملاحظة أخرى ، هى أن الحالم يرى غالبا فى منامه أن الميت هو الوالد الذى يشاركه جنسه .. بمعنى أن الابن غالبا يرى فى الحلم موت أبيه ، وأن البنت تحلم بموت أمها ، ولا أزعم أن هذه القاعدة مطلقة .. ولـكن هـذا هو الذى يحدث فى أغلب الاحيان ، ومرجعه الى ان الطفل فى بعض مراحل نموه ، يرى فى الاب الذى من جنسه غريما له فى حب أمه يستفيد من اقصائه الانفراد بعواطفها ، وأن الطفلة كذلك تشعر بالغيرة من أمها فى بعض مراحل نموها .. وتود او أخلت لها الام الجو كى تنفرد بعواطف أبيها

وانى لاعلم أن الـكثيرين من الاتقياء سينظرون الى هذه الدعوى نظرة انكار واشمئزاز .. ولـكن مكارم الاخلاق شىء والواقع الذى تسجله الوقائع العلمية شىء آخر !

وأن من يلقى باله لاطوارنموالاطفال وعلاقتهم بوالديهم لحرى أن يجد فى تلك العلاقات أكثر من سبب للعداء .. فلو تركنا قدسية الوصايا العشر جانبا وما تفرضه من اكرام الوالدين ، للاحظنا أن الطفل الصغير تخامره رغبات أقوى من تلك الوصية .. فكلما اشـــتد سلطان الاب فى البيت شعر الابن بالضيق والحقد ، وكاد صبره أن ينفــد انتظارا للتخلص من تلك السيطرة المرهقة ، وهذا مصدر لعداوة خفية لا شك فيها ، قد يكبتها اللاشعور فترسب فى الاعماق انتظارا لغفلة من الرقيب ..

واذا نظرنا الى الفتاة وجدناها أكثر احساسا برقابة أمها وضغطها ، ولا سيما أن الام تحاول أن تؤخر بقــدر

الامكان مظاهر نضوج ابنتها حتى لا يكبر بها ذلك فى عيون الناس .. وكل هذا يجعل الفتاة تنطوى على الضيق بأمها !

واذا أضفنا الى هذا أن الميول الجنسية ترجع أصولها الى الطفولة الاولى ، فسندرك أن ميل الفتى يكون نحو أمه وأن ميل الفتاة نحو أبيها ..

وقد شهدت بعينى كثيرا من الحالات التى تدل على سرور البنت بغياب أمها ، وهى فى سن وسط بين الطفولة والبلوغ ، ومن ذلك فتاة فى العام الثامن من عمرها ، كانت تنتهز فرصة غياب أمها عن البيت لتجلس فى مقعدها على المائدة ، وتعلن أنها ستقوم بدور الام .. وتبدأ فى توزيع الطعام والعناية بكل فرد من اخوتها كما تفعل أمها ..

وهناك طفلة أخرى لم تتجاوز الرابعة ، كانت تسفر عن رغباتها بصورة أوضح من هذا كلما غابت أمها عن الدار اذ تقول :

ـ فى وسع ماما أن تغيب كما تشاء .. سأتزوج أنا بابا !

هذا مع أن تلك الطفلة كانت تحب أمها أشد الحب !

ونلاحظ أنه عندما يسافر الاب فترة من الزمن ، وينام الولد فيها فى الفراش مع أمه ، ثم يعود الاب ويستعيد مكانه فى الفراش ، فمن المحتم أن يضمر هذا الولد الرغبة فى أن يظل أبوه غائبا باستمرار كى ينعم هو بالنوم مع أمه بلا انقطاع ، وأسهل تعبير على الغياب المستمر هو الموت ، لان الطفل يعلم أن الموتى هم الذين يغيبون غيبة أبدية لا سبيل الى عودتهم منها .. فالموت هو الضمان الوحيد لاستمرار الغياب ..

ومن الحالات التى مارست تحليلها ، أجزم بأن الابوين

هما أهم الاشخاص فى نفسية الطفل الذى يصاب بمرض عصبى بعد بلوغه .. فيكفى جدا أن يكون أحد الابوين مفرطا فى محبته ، وأن يكون الآخر مفرطا فى قسوته ، كى تتكون فى نفسية الطفل اضطرابات شديدة تمهد لظهور المرض العصبى

وما يصدق على المرضى بأمراض عصبية يصدق أيضا على الاشخاص العاديين ، وكل ما هناك أن الاضطرابات الطفلية تحولت عند فريق منهم الى مرض ، ولم تتحول عند فريق آخر لانها لم تكن كافية فى شدتها ..

وكل ما يمتاز به المرضى بأمراض عصبية هو تعبيرهم السافر عن الحب الشديد لاحد الابوين وعن الكره الشديد للآخر .. أما عند الاشخاص العاديين ، فهذا الشعور لا يكون بمثل ذلك الوضوح أو تلك الصراحة

***

ولا استطيع أن أختم الحلم بموت أحد الاحياء من غير أن أعلق على ظهور هذه الرغبة بصورة سافرة فى بعض الاحيان ، فلا بد لهذا السفور من شروط ، والشرط الاول أن يكون فى اعتقادنا الواعى أن هذه الرغبة أبعد ما تكون عن ذهننا ، ولذا لم تأخذ الرقابة الشعورية حذرها الكافى من ظهور هذا الخاطر الشنيع ، وما اشبه هذا بقوانين «صولون» التى لم تنص على عقاب من يقتل أباه ، لان المشرع الكبير لم يخطر بباله أن شيئا كهذا يمكن أن يحدث ، والشرط الثانى أن يثير هذه الرغبة المكبوتة أى نوع من القلق فى اليوم السابق على حياة شخص عزيز ، فتتخذ الرغبة المكبوتة من هذا القلق قناعا تفلت به من عين الرقيب الشعورى !

٣ ـ الحلم بالامتحان

ومن الاحلام النموذجية ايضا أن يحلم المرء انه رسب في الامتحان ، ويلاحظ أن هذا الحلم يتراءى لمن اجتازوا ذلك الامتحان نفسه بسلام فى الماضى ..

وأذكر من تجاربى الشخصية أننى لم أرسب ، وأنا طالب طب ، الا فى مادة الطب الشرعى ذات مرة ، ولكنى لم أحلم بعدها اطلاقا بأننى رسبت فى تلك المادة بالذات أو أعدت فيها الامتحان .. بل حلمت أننى أعيد الامتحان أو رسبت فى امتحان الكيمياء ، أو الحيوان ، أو النبات ، وكلها مواد كنت قد نجحت فيها بدرجة الامتياز .. أو أنى أؤدى امتحانا فى مادة التاريخ وهو من المواد التى نجحت فيها فى البكالوريا بتفوق كبير

واعتقادى أن هذه الامتحانات التى يحلم بها الانسان ، ويكون قد نجح فيها بتفوق لا يبرر ذلك الفزع ، انما هي كنايات عما فى الحياة الجنسية من امتحان لرجولة الشخص ، ومواقف لا يكفى النجاح السابق فيها للاطمئنان على المستقبل

وربما كان الحلم نوعا من اللوم على اتيان الشخص فى طفولته لافعال جنسية يخجل منها ..



الفصل الرابع

عمليات الحلم الأول ● الرمزية فى الأحلام



عمليات الحلم

ان كل اهتمـــــام السابقين بالاحلام كان منصرفا على تأويل الاشكال الظاهرة منه .. أما نحن فقد أدى بنـا البحث الى وجود مضمون مستتر أو باطن لـكل حلم وراء شكله الظاهرى ، فكل حلم انما يرمى بمحتواه الباطن الى تحقيق رغبة لا شعورية لدى الحالم ، وان كون هذه الرغبة لا شعورية يجعلها هدفا « للمصادرة » من الرقيب الشعورى ، وتهربا من هذه « المصادرة » يلجأ الحلم الى عمليات تنكر بعيدة المدى لاخفاء معالم تلك الرغبة الممنوعة أو المـكبوحة ، ومن هنا يأتى التشويه والالتواء والغموض الذى يسود أشكال الاحلام ، ويحدث التفكك الواضـح وعدم التناسق بين أجزائه .. فهنـاك من الاجـزاء ما لا حاجة الى الامعان فى اخفاء معالمه ، وهناك أجزاء أخرى يحتاج الامر فيها الى عمليـات تنكر مسرفة .. وهكذا ينقطع الانسجام بين أشكال الحلم فى أجزائه المختلفة

ونخرج من هذا بأن فى الحلم تيارين أحدهما سطحى والآخر خفى ، والتيار السطحى انما هو تعبير بطريقـة « ملغزة » غالبا وملتوية عن التيار الخفى ، ولذلك يجب علينا أن نستخدم الفطنة لنعرف مدلولات تلك « اللغة الهيروغليفية » التى يعبر بها المضمون النفسى للحلم عن أغراضه !

ان هذه اللغة الغامضة نوع من الـكتابة بالصور .. لا ينبغى أن نربط صورها بعضها ببعض ، بل يجب أن

تأخذ كل صورة على حدة وننقلها فى جزئيتها الى لغة الحلم الباطنة ، مع مراعاة أن الصورة مجرد رمز

وسأضرب مثلاً للتوضيح .. فأفرض أن أمامى احد تلك الالغاز المصورة ، وهو عبارة عن بيت فوق سطحه سفينة ثم حرف من حروف الكتابة .. وشخص يجرى بدون رأس .. وما الى ذلك من المتناقضات التى أراها خالية من المعنى المعقول جملة وتفصيلا ، لانه لا يمكن اعتبار سطح الدار مكانا مناسبا للسفن ، واشد أمعانا فى التناقض أن يجرى شخص وهو بغير رأس ، ثم كيف نعلل وجود حرف واحد فى هذا الحلم ؟ .. ان الحروف لا توجد فى المناظر بل على صفحات الاوراق !

ان الطريق الصحيح لقراءة هذا الشكل ، هو أن نحل طلاسم كل عنصر من عناصره على حدة ، وعندئذ سنجد من مجموع هذه الاشياء معنى معقولا جدا ..

***

وأول ما يواجهنا عند بحث العلاقة بين التيار السطحى والتيار الخفى فى الحلم ، أو بين التعبير والمعنى الكامن ، هو أن التعبير الظاهرى مختزل ومفكك ، فلو كتبت ما أراه فى الحلم لما استغرق أكثر من بضع سطور ، ولكن تعقب الذكريات المتصلة بهذه الصور ، وما فيها من التأويل ، لابد أن يستغرق بضع صفحات .. ثم لو أنى تابعت التفسير بعد ذلك والتحليل ، لوجدت مزيدا من الذكريات يشير اليها الحلم من طرف خفى ، وهذا شئ يقارب فى العمليات الكيماوية عملية التكثيف .. فمن سحابة من البخار نخرج بدلو من الماء

وربما سأل سائل بعد ذلك : هل من حقنا أن نعتبر جميع الخواطر الكثيرة التى يستخرجها لنا التعليل كانت فعلا متمثلة فى النشاط النفسى الذى نتج عنه

الحلم ؟ .. وهل لا يكون من المعقول أن تلك الافكار التى استخرجها التحليل انما هى فى جزء كبير منها اضافات أقحمها التحليل على عملية تكوين الحلم ؟

من الطبيعى فى هذه الحالة أن نعتبر كل الذكريات المستترة وراء شكل الحلم ، هى فى الواقع سبب وجود ذلك الشكل .. فمن غير هذه الدوافع الباطنة ما كانت النفس لتنشط لخلق الصور التى تراءت لنا فى الحلم ..

ومهما يكن من شىء ، فمن المقطوع به أن بنية الحلم جاءت نتيجة لعملية تقطير أو تكثيف معقدة .. فمن واجبنا الآن أن نبحث فى كيفية قيام النفس بهذه العملية

ولا توجد وسيلة لتعقب هذه العملية الخفية أفضل من فحص حلم حدثت فيه عمليات التقطير أو التكثيف على مدى واسع ، والحلم الذى سأتناوله الآن رآه أحد مرضاى .. وكان يعالج عندى من حالة خاصة هى الفزع من الاماكن المقفلة

رأى الحالم نفسه راكبا مع مجموعة كبيرة من الاشخاص المجهولين فى شارع « س » ، وفى هذا الشارع وجدوا خانا من النوع السوقى (وهذا يخالف الواقع) وبداخل هذا الخان وجد مسرحية يجرى تمثيلها ، وقام بدور المتفرج بعض الوقت ، وبدور الممثل فى أحيان أخرى ، وكان على الموجودين بعد الفراغ من التمثيل أن يبدلوا ثيابهم لينطلقوا الى المدينة .. فنزل بعضهم فى الطبقة الارضية ، ونزل الآخرون فى الطبقة التى تعلوها ، ثم تنازع الفريقان .. فأهل فوق ساخطون لان أهل تحت يتلكأون ويعطلونهم ، وكان شقيق الحالم فى الطبقة العليا ، أما الحالم نفسه فكان فى الطبقة السفلى ، وأغضبه من أخيه أنه ومن معه يستعجلونهم بصورة مزعجة ، وأحس الحالم أن تقسيم المجموعة الى فوق وتحت مسألة مفروغ منها

منذ بداية الحلم ، وينطلق الحالم بعد ذلك بمفرده صاعدا شارع « س » المرتفع متجها الى المدينة ، فيجد مشقة كبيرة فى ذلك الصعود .. حتى انه فى بعض الاحيان لايقدر على الحركة من موضعه ، وعندئذ يتقدم منه رجل مسن ، ويذكر ملك ايطاليا بسوء .. وبمجرد وصول الحالم الى قمة الشارع الصاعد يشعر أن السير صار سهلا للغاية ، وكان شعوره بصعوبة الحركة وهو صاعد جادا الى درجة أنه بعد اليقظة كان يظن أن ما حدث أمر حقيقى وليس مجرد حلم

وأبادر فأقول أن صعوبة الصعود مع اللهث ظاهرة مرضية عانى منها قبل سنوات ، حتى لقد اعتقد الاطباء أنه مصاب بالسل .. ثم اتضح أنه يعانى من علة عصبية هستيرية تجعله يقلد المصابين بذلك المرض

وأما كونه يحاول الصعود فلا يستطيع ، فهذا نوع من العجز يصور به الحلم الخزى .. وهو شىء رأيناه بوضوح فى أحلام العرى الاستعراضية

والغريب أننى حينما كنت أصغى لرواية الحلم ، وسمعته يذكر صعوبة الصعود فى البداية ثم سهولته عندما وصل الى القمة ، تذكرت على الفور مطلع رواية سافو للكاتب الفرنسى « الفونس دوديه » حين كان البطل يصعد السلالم الى مسكنه حاملا على ذراعيه صيده العابر ، معشوقته سافو .. فكانت خفيفة الحمل جدا فى البداية ، ثم أخذت تثقل عليه شيئا فشيئا حتى انبهرت أنفاسه قرب القمة !

وما من شك فى أن المؤلف الفرنسى الشهير أراد بهذا المشهد أن يرمز الى مصير كل علاقة جسدية ، مهما بلغت درجة افتتان العاشقين أحدهما بالآخر ..

ومن معرفتى بأحوال الحالم ، كنت على علم بعلاقة له

مع احدى المشتغلات بالمسرح فيما مضى ثم قطع ما بينه وبينها ، وليس من النادر أن تعمـد الاحلام الى قلب الحقائق على سبيل التشويه أو الغموض ، فعلاقة سافو بدأت هينة ثم انتهت الى المشقة

ولما صارحت مريضى بما خطر على بالى من تلك المضاهاة ، قال لى :

ـ بل اننى رأيت فى المساء السابق تمثيلية أقرب الى حلمى من رواية سافو ، وبطلة المسرحية فتاة من بنات الاسر تنكبت الطريق بعد ذلك واتصلت ببعض الوجهاء الى أن بلغت ذروة الشهرة .. ولكنها دفعت الثمن فهوت سريعا

ولكن ما صلة شارع « س » بالحالم ؟ ..

ان الممثلة التى كان على صلة بها تقطن شارع «س» ، وهذا الشارع ليس فيه خانات ، فمن أين أتت علاقة الخان بذلك الشارع ؟

ان ذلك الشارع يشير الى عشيقته السابقة.. وكان قد اقام فى فيينا فترة من الزمن ليكون قريبا منها ، واضطر فى تلك الفترة الى النزول فى فندق حقير لقرب موضعه من الشارع الذى تسكنه ، ولما غادره ليسافر قال لسائق العربة :

ـ أحمد الله أنى سلمت من حشرات هذا الفندق ..

فأظهر الحوذى عجبه من نزول سيد مثله بهذا المكان الحقير ، وعبر عن ذلك بقوله انه ليس فى الواقع سوى خان لا ينزل به السادة ..

وأما هجر صاحبته له ، فهو مرتبط فى نفسه من غير شك بهجر آخر حدث فى الطفولة ، هو انقطاع صلته بمربيته أو حاضنته ، وأما مجموعة الرفاق الغرباء ، فمعناها الرمزى دائما هو الاستتار أو التخفى واخفاء

العلاقة السرية أو العمل المخجل عن عيون الناس

وليس فى هذه المجموعة من الغرباء من يعرفه الحالم سوى شقيقه الاكبر الذى نزل فى الطبقة العليا من الخان ، ونزل هو فى الطبقة السفلى .. وهذا أيضا قلب للواقع ، لان هذا الاخ هو الذى هبطت به ظروف الحياة عن مستواه وفقد ثروته ومكانته .. فكأن قلب الحقيقة سياسة عامة فى ذلك الحلم

ان قلب الاوضاع بالنسبة للاخ الذى آلمه سقوطه عن مكانته يتفق مع قلب الاوضاع بالنسبة لصلته بخليلته التى آلمه هجرها .. فاذا به يرى صاعدا فى شارع «س» الذى يرمز الى شخصها بمشقة وخزى فى البداية ، ثم بخفة وانطلاق فى النهاية .. وذلك بعكس ما حدث له ولعشيق سافو فى الرواية المشهورة

وما من شك فى أن لهذه التعبيرات ذات المغزى الجنسى صلة بحالة المريض العصبية والجنسية ، وما من شك كذلك فى أن الاخ الاكبر قد يرمز الى جانب حقيقته الواقعية الى جميع من هم أكبر منه وأقوى ، فنافسوه فى حب عشيقته وانتهوا باقصائه عنها ..

وأما ذلك الشخص الذى قابله وجعل يذكر ملك ايطاليا بالسوء .. فالغالب انه رمز لمن يطلقون السنتهم فى أعراض الناس مهما كانت مكانتهم عزيزة

***

وأريد الآن أن اذكر حلما آخر رأته سيدة مسنة كنت أعالجها ، وفى أحلامها عمليات تكثيف وتقطير عنيفة .. لان حالتها كانت تتضمن اضطرابات جنسية شديدة مكبوتة ، كشفت لها عنها بالتحليل قبل ذلك الحلم ، وأثار هذا الكشف استنكارها وخوفها الى درجة كبيرة ..

حلمت هذه السيدة المسنة أنها تذكرت فجأة اثنتين من الخنافس ، كانت قد حبستهما داخل صندوق .. وفتحت الصندوق فوجدتهما فى حالة ضعف ، وطـارت احداهما بعد ذلك من النافذة ، فأسرعت الحالمة باغلاقها فحطمت الخنفساء الاخـرى بالمصراع ، وكان اغلاقهـا للنافذة بناء على طلب أو أمر تلقته من مجهول وقد أثار ذلك تقززها ..

وأول ما يتبادر الى الذهن هو ما حدث فى اليـوم السابق مباشرة ، فقد كان زوج هـذه السيدة مسافرا فصارت بنتها المراهقة تنام معها فى فراشها ، وقد نبهتها قبل النوم أن حشرة سقطت فى وعاء المـاء ، ولـكنها لم تكترث لانقاذها .. وتذكرت أيضا أنها قرأت بعد الظهر فى الصحيفة اليومية عن تعذيب بعض الصبيـة لقطـة ألقوا بها فى ماء ساخن الى درجة الغليان

وليس هذان الامران على شىء من القيمة بالنسـبة للحلم ... ولـكنهما أثارا فى نفسها موضوعا واحدا هو شعور القسوة بالنسبة للحيوانات والحشرات

ومما يرتبط بهذا الموضوع من ذكرياتها البعيدة أن ابنة السيدة ، عندما كانت طفـلة ، كانت تقسو على الحشرات والحيوانات الصغيرة ولا سيما على الفراشات التى تصيدها وعلى يرقات دود القز .. بل حدث ذات مرة أنها انتزعت أجنحة بعض الخنافس

كل هذا حدث من البنت وهى صـغيرة جدا ، فلمـا شبت قليلا صارت نموذجا لرقة القلبوهو أمر كان يثير عجب الام لما فيه من تناقض واضح

وفى السـنة التى كانت بنتها تجمع فيها الفراش والخنافس ، كانت القسوة على الخنافس بوجه خاص

أمرا شائعا بين الجميع لانتشار وباء خطير تنقله تلك الحشرة

وفى الليلة التى رأت فيها السيدة هذا الحلم كانت ترتب أوراقها القديمة ، وكلما وجدت شيئا طريفا كانت تتلوه على الاسرة ، ومن بين هذه الرسائل خطاب غرام وصلها من معلم البيانو وهى صغيرة ، ورسالة غرام أخرى من متيم بها ينتمى الى الطبقة الراقية

وهنا تبرز صلة عجيبة بين الخنفساء التى قست عليها وبين العشق الشديد الذى انطوت عليه رسائلها القديمة .. ففى احدى مسرحيات كليست :

ــ ان حبك لها شبيه بهيام الخنفساء !

وهذا كناية فى اللغة الالمانية عن الافتتان الشديد والشغف المتلف

وأعرف من حالة تلك المريضة أنها شديدة القلق على زوجها حين يكون مسافرا ، وتنتابها من ذلك تخيلات وأوهام أثناء يقظتها فى النهار ، وفى الوقت نفسه أعرف من تحليل حالتها انها تضمر الشكوى والتذمر للضعف الذى أصيب به زوجها بعد أن علت به السن ..

ومن هذا القبيل انها رأت أثناء النهار ، وهى تقوم بأعمال المنزل ، شبحا وهميا كزوجها ، وجاء على لسانها موجهة الخطاب الى خيال زوجها قولها :

ــ اشنق نفسك !

ولما تعقبتها بالاسئلة عن ذكريات الشنق لديها اعترفت انها قرأت قبل ذلك بوقت قصير ان المشنوق يحدث لديه انتصاب شديد !

ومن حيل الرغبات اللاشعورية أن تتحرى فى تخفيها وتنكرها أبعد الاشكال عن فحواها .. فالرغبة المخجلة فى انتصاب زوجها رحبت بهذا القناع البعيد عن الذهن ،

وهو قناع الانتحار شنقا .. فكأنها تريد أن تقـــول لزوجها العجوز الغائب :

ــ احرص على أن تصل الى تلك الحالة بأى ثمن !

وأما فتح النوافـــذ واغلاقها ، فمردها فى الحلم الى الخلاف بينها وبين زوجها .. فهى تحب النوم فى هواء متجدد ، وزوجها حريص على أغـلاق النـــوافذ ويطلب اليها ذلك دائما .. فكأنما طلبه تذكرة بوجوده فى حياتها وتنفيذ طلبه ، أى ان الارتباط بزوجها ، أدى الى سحق الخنفساء أى عواطفها التى كانت تريد أن تنطلق بحرية

***

والى جانب عملية التكثيف توجد عمليات أخرى هى عمليات الابدال .. ففى الحلم الذى يشـــبه افتتـاحية رواية سافو،كان الشكل الظاهرى للحلم عبارة عن عمليات صعود وهبوط ووجود الناس فى طبقتين : عليا ، وسفلى، ولـكن المضمون الخفى للحلم هوتخوف الحالم من الارتباط بأشخاص ذوى أقدار وضيعة ارتباطا جنسيا ..

واذا نظرنا فى حلم السيدة بالخنفساوين ، وجـدنا الموضوع الاصلى أو الخفى للحلم هو العلاقة بين الحيـاة الجنسية والقسوة البدنية ، ولـكن الحلم يتخفى فيحذف المسألة الجنسـية حذفا تاما ، ويستبدل بها الطرف الآخر فى العلاقة وهو القسـوة البـدنية .. وهـذا الابدال من شأنه أن يبعد الذهن عن المضمون السرى للحلم ..

وهذا الابدال من شأنه أيضا أن يجعل مهمة التفسير عسيرة ، فان الاشياء التى يشتد اهتمام النفس بها هى أكثر الاشياء تعرضا للابدال ، ومن هنا يأتى توهم البعض أن ما يتكرر فى الحلم هو المهم ، مع أن الواضح المتكرر فى الحلم هو أبعد الاشياء عن الاهتمام الخفى للنفس

ومن الوســـــائل التى يلجأ بها الحلم الى الربط بين الاشياء ، وسيلة بسيطة هى حـدوث الشيئين فى زمن واحد فى الحلم ، دلالة على أن هناك علاقة منطقية بينهما ، وذلك شبيه بعمل المصور الذى يجمــع عـلى المائدة فى صورة واحدة فلاسفة بينهم فروق زمنية تصل الى عدة قرون .. فهو لا يعنى بذلك أن « ارسطو » كان يعيش فى زمن « كانت » أو يمكن أن يجتمع معه فى مكان واحد.. بل ما يعنيه أن بينهما صلة عقلية ، ولـكنه لايستطيــع التعبير عن الصلة العقلية بالرســم ، فيستخــدم لذلك الصلة الزمانية المكانية

واما علاقة السببية ، فالحلم يتبع فى بيانها المنهج الذى يمثله النموذج التالى :

رأت مريضتى أنها دخلت المطبخ فوجدت خادمتيها فى حالة كسل ووبختهما لأنهما لم تجهزا لها ما تأكله ، وتلمح فى تلك الاثناء أكواما من الآنية المغسولة يقطر منها الماء ، وتذهب الخادمتان لاحضار شىء من الماء فاذا بنهر طام يصل فيضانه الى مستوى المنزل فتخوضـــان فيه ..

وتصحو الحالمة ثم تنام لترى حلما يبدو منفصــلا عن الحلم السابق ، ولـكنه فى الحقيقة مرتبط به .. ترى أنها تنزل من قمة ربوة عالية ، وتجتاز عقبات معقدة ، وتشعر بالفرح لانها استطاعت النزول من غير أن يتعلق ثوبهـا بشىء يعوقها

وأول هـذين الحلمين بمثابة تمهيد للحلم الآخر .. والمنزل الذى رأته هو منزل أبويها ، وأما نوم الخادمتين فشىء ألفت أن تسمع أمها تفعله .. وأما أكوام الآنيـــة فمستعارة من محل لبيع الادوات المنزلية يقع تحت ذلك البيت مباشرة ، وأما النهر الذى تخوضه الخادمتان ، وقد فاض حتى بدأ يغرق البيت ، فكناية عن والد الحالمة

الذى كان مشهورا بتعلقه بالخادمات ، وظل حاله كذلك الى أن أصيب بمرض فى موسم فيضان النهر قضى على حياته والمنزل يقع على شاطىء النهر فعلا

ومغزى هذا الحلم رقم (١) عبارة عن جملة مترابطة بمثابة المقدمة من قضية لها سبب ونتيجة ، وهذه العبارة هى :

ـ اننى ولدت ونشأت فى هـــــذا البيت الذى تضيق فيه الام بحياتها ، وتتضجر من اهمال شأنها بسبب الخادمات اللواتى يخادنهن ويتصل بهن الوالد اتصــالا فاضحا الى أن مات .. والحالة الاقتصـــــادية فيه والاجتماعية مخجلة حتى أن بأســـفله متجر الادوات المنزلية الرخيصة ..

أما الحلم الثانى فهو النتيجة لتلك المقدمة .. وفيه تحقيق لامنية الحالمة ، فهى تنحدر من أصل عال ، ولـكن العقبات التى تقيمها ظروفها المنزلية فى وجهها لم تتمكن من أصابتها بأذى ..

***

وأما علاقة التنافى أو التناقض التى يقول العقل انها مستحيلة فشىء لا يعترف به الحلم .. انه لا يعرف شيئا اسمه المستحيل ، بل ان من المألوف فى الاحلام أن يأتى الشىء فى صورة ضده أو نقيضه بقصــــد التمويه على الرقيب الشعورى ، حتى ان الانسان يحار فى البداية فى فهم الحلم ، وهل يقصد به الشىء أو ضــــده .. ومن العجيب أن اللغات العريقة فيها كثير من الكلمات التى تدل على الشىء وضده ، فكأنها حيلة قديمة يفتتن بها العقل الانسانى !

وأجد من المناسب أن أعود الى الحلم السابق الذى كانت

فيه الفتاة تهبط الربوة العالية وتجتاز الحوائل المعقدة ، فقد كانت فى ذلك الحلم تحمل فرعا من فروع الاشجار مزهرا بالزنابق البيضاء .. وهـــــذا رمز لنقاء الذيل والبكارة العذرية ، ولـكنها لاحظت بين هـذه الازهار البيضاء أزهارا حمراء ، ولاحظت أن جميع الازهار حين انتهت من هبوط التل ذبلت وتساقطت !

ان تأويل هذا الرمز أن الفتاة فرحة لاستطاعتها ، رغم النشأة السيئة فى بيت أسرتها ، أن تمضى فى طريق الحياة طاهرة الذيل محافظة على بكارتها ، هـذه الطهارة التى تخللتها زهور حمراء ترمز الى الحيض والبلوغ ، وأما الذبول فيدل على أن هذا السرور بالطهارة يقترن فى الوقت نفسه برغبة خفية فى الحرية الجنسية

فالحلم قد عبر عن النقيضين فى وقت واحد ، اشـارة الى أن النفس لا يمتنع أن يوجد فيها النقيضان ..

***

ومن الوسائل التى يعمد اليها الحلم أيضا ادماج عـدة شخصيات فى شخصية واحدة لصفات مشتركة بين هذه الشخصيات ، حينما يريد الاشارة الى وجه التشـابه فى الصفات لا الى الاشخاص أنفسهم .. فيظهر فى الصورة أحد هؤلاء الاشخاص دون الآخرين ، وتتمثل فى هـذا الشخص الظاهر جميع صفات الاشخاص الذين يمثلهم

وأحيانا نجد فى هـذا الشخص الذى يمثل نفسـه بالآخرين مجموعة منتقاة من ملامح الجميـع ، فله أنف هذا ، ولحية ذاك ، وهكذا ..

ومن الجائز أيضا أن يحمل الشخص الماثل فى الحـلم اسم أو وظيفة شخص آخر يمثله فى الوقت نفسه، فندرك

أن المفروض وجوده هو الشخص الغائب

وفى بعض الاحيان أيضا يمثل الشخص الحاضر شخصا غائبا عن طريق انتحال حركاته فقط ، أو طريقتـــــه فى الـكلام ، أو عباراته المأثورة عنه

والقدرة على المزج بين الاشكال والاشخاص قدرة غير محدودة ، وهى صفة من صفات الخيال التى نجدها عند الاطفال .. وقد تتمثل فى الاساطير ، فهى من قبيل تصور حصان له أجنحة وما الى ذلك ..



الرمزية فى الاحلام

للاحلام رموز خاصة تستخدمها للتعبير عن الموضوعات المخجلة والممنوعة ، والجنس وما يتصل به من أهم هـذه الممنوعات طبعا ، وطريقة الرمز مألوفة فى حياتنا العادية حين نتحدث بالـكناية عن الامور الجنسية ..

وان انتظام هذه اللغة الرمزية فى الاحلام للدلالة على الموضوعات الجنسية يدخل فى روع المرء أن ذلك يجرى على حسب « شفرة » خاصة شبيهة بلغة الاختزال

والواقع أن طريقة الرمز ليست أسلوبا خاصا بالاحلام وانما هى طريقة عامة فى كل ما يتعلق باللاشعور.. فكم فى الاناشيد الشعبية والاساطير والكلمات المأثورة والنوادر الدارجة على الالسن من رموز وكنايات تفوق ما يوجد فى الاحلام

والمألوف أن يكون هناك داع لاستخدام الرمز المعين ، وهو وجه شـبه أو عنصر مشترك بين الرمز وما يدل عليه ..

والداعى الى استخدام الرموز فى الاحلام واضح ، الا وهو التعبير عن المقاصد الخفية والمعانى الاصلية تعبيرا مستترا ينطلى على الرقيب الشعورى ، ومتى نجح رمز معين فى اخفاء معالم معنى معين ، فان الحلم يستأثر بهذا الرمز ويستخدمه دائما .. ولـكن هذا الرمز لا يحتكر التعبير عن هذا المعنى ، فمن الممكن أن يستخدم الحلم رمزا

آخر ، فهناك نوع من المرونة فى لغات الاحلام الرمزية ، وهذه المرونة ترتبط الى حد كبير بمزاج الحالم وبقيـة ظروف الحلم ..

وفى أحيان كثيرة يدل الرمز الواحد فى الحلم على أكثر من معنى ، مثلما تدل الـكلمة الواحدة فى اللغة أحيـانا على أكثر من معنى .. ويكون المعول فى فهم المعنى المقصود فى الحالتين على سياق الحلم فى جملته ..

وأبدأ ببيان بعض الرموز الشائعة :

١ ـ الملك والملـكة = والدا الحالم أو الحالمة

٢ ـ الامير أو الاميرة = الحالم أو الحالمة

(ويمكن أن يحل محل الملك والملكة أى شخص عظيم المقام فى نظر الحالم)

٣ ـ الاشياء المستطيلة عموما

٤ ـ العصى والاغصان

٥ ـ الاسلحة الحادة كالخناجر

٦ ـ المعول ومبرد الاظافر

= آلة الرجل الجنسية

٧ ـ العلب والصناديق والادراج

٨ ـ الخوانات والمدافىء

٩ ـ السفن وكل ما هو مجوف

١٠ ـ الحجرات ذات الابواب

= الرحم عند المراة

١١ ـ المفتاح والقفل = جهازا الرجل والمراة

١٢ ـ المرور فى سلسلة من الغرف المتداخلة

= الزواج أو أحيانا منزلا للدعارة

١٣ ـ السلالم والربى = الفعل الجنسى

١٤ ــ الجدران الملساء التى ينزلق عليها الحالم وهو مرتاع ، أو يتسلقها ولا يجد بها نتوءات
= العلاقة الطفلية بالوالدين أو الحاضنة

١٥ ــ المائدة أو الخوان أو الفراش = الزواج
١٦ ــ موضوعات الغذاء = موضوعات الجنس أحيانا
١٧ ــ قبعة المرأة = آلة الرجل
١٨ ــ رباط العنق = آلة الرجل
١٩ ــ المعطف = آلة الرجل
٢٠ ــ المحاريث والبنادق والمسدسات = آلة الرجل
٢١ ــ جبال تعلوها الاشجار = أعضاء جنسية
٢٢ ــ الأطفال الصغار = الاعضاء الجنسية أحيانا
٢٣ ــ ملاعبة الاطفال = العبث بالاعضاء الجنسية
٢٤ ــ قص الشعر وسقوط الاسنان = الخصاء
٢٥ ــ الثعبان = آلة الرجل
٢٦ ــ المنطاد والطائرة = آلة الرجل
٢٧ ــ الطريق اليمنى = سواء السبيل
٢٨ ــ الطريق اليسرى = طريق الضلالة والجريمة
٢٩ ــ الطريق اليسرى = علاقة شاذة بنفس جنس الحالم
٣٠ ــ الطريق اليمنى = علاقة جنسية طبيعية
٣١ ــ عدم اللحاق بعربة أو قطار = فارق فى السن لا يمكن اغفاله
٣٢ ــ حقائب محمولة = خطايا تثخن الضمير أو عضو المسافر الجنسى

***

ومعظم الرموز السابقة مستقاة من دراسة نشرها « شتيكل » ومعظمها نوافق عليه .. ولكننا ننبه الى أن الاحلام قد تستعمل رموزا عكسية للدلالة على أعضاء

التناسل ، وتستخدم أحيانا الرموز الذكرية لاجهزة الاناث أو العكس .. وغالبا ما يدل هذا على رغبة الحالم أو الحالمة فى أن يكون من الجنس الآخر ، وليس من النادر أن تتمنى المرأة لو أنها كانت رجلا .. !

والاحظ أيضا أن الحلم قد يصور الاعضاء الجنسية مستعينا بأعضاء أخرى من الجسم ، فيرمز لآلة الذكر بيد أو رجل ، ويرمز لآلة المرأة بفتحة الفم أو الاذن أو العين ، وقد نشرت فى محاضراتى التمهيدية عن التحليل النفسى مزيدا من التفصيلات الخاصة برمزية لغة الاحلام ..

وأريد الآن أن أضرب بضعة أمثلة عن كيفية استعمال هذه الرموز فى الاحلام ، بحيث يكون الجهل بها حائلا دون تأويل الحلم ، مما يلزمنا بالاعتراف بأن لغة الحلم رمزية

١ — رمز القبعة

وهو حلم .. أو بمعنى أدق جزء من حلم سيدة شابة ينتابها ذعر من الاماكن غير المغلقة أو المحدودة نتيجة خوف من الغواية والفتنة :

— حلمت أنى أمشى فى شارع ، والوقت صيف ، مرتدية قبعة من القش غريبة الشكل ، فهى مائلة الى أعلى من الوسط وجانباها متهدلان الى أسفل بحيث كان أحد الجانبين أكثر تهدلا من الآخر ، وكنت منشرحة الصدر ، وأنا أمشى هكذا معتدة بنفسى ، وصادفت فى طريقى حفنة من الضباط الشبان ، فقلت لنفسى وكأنى أخاطبهم :

— لا يستطيع أحدكم أن يمسنى بسوء ..

وحاولت أن أعرف من الحالمة رأيها فى القبعة ، وبماذا تقترن فى ذهنها فلم أجد عندها أدنى فكرة عنها فقلت لها :

— اعلمى اذن أن القبعة لا ترمز فى الاحلام الى شىء

على الاطلاق سوى عضو الرجل الجنسى .. وأنت قد حلمت بالقبعة وجزؤها الاوسط متجه الى أعلى وجانباها متهدلان .. !

ولم أتعجل التعرض لكون القبعة التى حلمت بها كان أحد جانبيها أكثر تدليا وتهدلا من الجانب الآخر .. وتركت ذلك الى فرصة مناسبة واستطردت :

ـ انك فى الحلم تتباهين بأن لك زوجا ذا أداة جنسية موضع الاعجاب ، تتحدين بها مجموعة الضباط المغازلين المغوين للنساء والفتيات ، ومؤكدة لهم أنه لا حاجة بك الى ما لديهم ، وأنه لا سبيل لهم اليك .. لان زوجك الآن قادر على حمايتك من كل هؤلاء حين تخرجين معه فلا يجسر انسان على التعرض لك بسوء

والعجيب أن مريضتى صمتت بعد هذا التفسير طويلا، ثم سألتنى فجأة :

ـ هل جميع الرجال هكذا ، أم أن زوجى وحده هو الذى ينفرد بأن احدى خصيتيه أكبر وأكثر تدليا من الخصية الاخرى ؟ !

فكان هذا السؤال أقوى اعتراف بمطابقة رمز القبعة فى الحلم ..

٢ ـ السقوط تحت العربة

وسأروى الآن حلما آخر لهذه المريضة نفسها ، يرمز فيه الطفل الصغير الى العضو الجنسى ، ويرمز فيه السقوط تحت العربة للعملية الجنسية :

ـ أخرجت امى ابنتى الصغيرة من البيت ، فاضطررت أن أرحل وحدى بعد ذلك ، وركبت مع أمى قطارا ورأيت من نافذته ابنتى الصغيرة تمشى على قضبان القطار بحيث يتحتم وقوعها تحت العجلات .. وأسمع القطار

وهو يسحق عظامها ، فأشعر بعـدم ارتيـاح ، ولـكنه لا يصل الى حد الفزع أو الفجيعة .. وأجيل نظرى من نافذة عربة القطار لاعرف هل من الممكن رؤية الاجزاء من الخلف ، ثم ألوم أمى لانها اخـرجت ابنتى الصغيرة من البيت وحدها ..

وأبدأ بالقول أن هذا الحلم ضمن سلسلة من الاحـلام الطويلة ، لا يمكن فهمه تماما من دونها .. ولكنى أستطيع أن أقول عن رحلة القطار أنها مستمدة من رحلتها حين أخرجت من مصحة للامراض العصبية ، كانت قد افتتنت بالطبيب المعالج فيها ، وقد ذهبت أمها بنفسها الى المصحة لتأتى بها فى القطار ، وجاء الطبيب المعالج الذى تعلقت به المريضة الى المحطة ليودعها ، وقدم لها باقة من الورد فتضايقت لان أمها كانت موجودة فى لحظة الوداع العزيزة

وهذا هو السبب فى أن أمها تبدو فى الحلم فى صـورة العدو الذى يعرقل محاولاتها الغرامية ويؤدى الى تضييع فرص لذتها ..

واذا رجعنـــا الى تاريخ مريضتى ، وجدنا أن أمها المتزمتة كانت دائما تقوم فى طفولة الفتـــاة بهذا الدور الثقيل ..

وأما النظر من النافـذة لترى هل يمكن رؤية الاجزاء من الخلف ، فان الذهن قد ينصرف الى أن المراد كما فى ظاهر الحلم هو رؤية حطام فتاتها الصغيرة التى دهمهـا القطار ، ولـكن الفتاة فى الحلم ليست سوى رمز ، وكى نفهم الحقيقة يجب أن نعود الى طفولة المريضة الاولى.. حين رأت وهى صغيرة جدا أباها عاريا تماما فى الحمـام ذات مرة ، وكان ظهره الى ناحيتها ..

وتحدثنى مريضتى عن أنها كانت تعتقد دائما أن أعضاء

الرجل الجنسية بحكم تدليها يمكن أن تشاهد من الخلف.. أما المرأة فلا ..

وهذا الاعتقاد نفسه يحتم أن الفتاة الصغيرة فى الحلم ليست طفلة وانما هى أعضاء التناسل .. ومعنى كلامها عنها بقولها «صغيرتى» انها تقصد أعضاءها هى الجنسية. فكأنها فى الحلم تريد أن تلوم أمها برمز اخراج الفتاة من البيت وحرمانها منها لان الام أرادت منهـا أن تعيش وكأنها بغير أعضاء جنسية ، ومعنى أنها تمضى بعد ذلك وحدها مضطرة أنها تعيش بلا رجل يعاشرها ويكون لها قرينا وصاحبا ..

وأما السقوط تحت العربة ، أو القطـار ، فرمز الى العملية الجنسية وما تقترن به من تحطيم شعرت منه لاول وهلة بعدم ارتياح لم يبلغ حد الفزع أو الفجيعة ، وهذا رمز أيضا الى رغبتها اللاشعورية فى ممارسـة الحيـاة الجنسية ، رغم ما تقترن به لاول وهلة من آلام أو عـدم ارتياح .. وهذا هو جانب تحقيق الرغبة فى الحلم ..

٣ ـ رمز الابنية والسلالم الكهوف

ومن رموز أعضاء التناسل الابنية والدرجات الصاعدة أو الهابطة والكهوف المظلمة .. وسأروى الآن حلم شاب من مرضاى كان علاجه عسيرا ، فهو ذكى يساير العلاج .. ويسهم فى تفسير احلامه ببراعة ، ثم ينطوى على نفسه بعد ذلك فلا يستطيع المعالج أن يسبر غوره :

ــ رأيتنى أتنزه مع والدى فى موضع أعتقد أنه حديقة « براتر » لانى رأيت فيه الروتوندا .. وأمامه مبنى صغير مشدود اليه منطاد ، ولكن المنطاد كان فى الحلم غير قائم تماما ، ويسألنى أبى عن سبب كل هذه الاشياء فأعجب لسؤاله ولكنى أوضح له الامور ، وتمضى بعد ذلك الى

رحبة فوق أرضها مسطح من الصفيح يريد أبى أن يقتطع جزءاً منه ، ولكنه يتلفت حوله كالمتلصص قبل أن يقدم على ما يريد ، فأقول له :

ــ قل للحارس رغبتك .. وبعد ذلك لك أن تأخذ ما شئت وانت مطمئن ، ومن هذه الرحبة سلم ينتهى الى كهف فى باطن الارض ، وجدران هذا الكهف أشبه بالارائك الجلدية المنضددة ، وفى نهاية الكهف سرداب طويل ينتهى الى كهف آخر ..

والمريض نفسه لم يعجز عن تفسير هذا الحلم كما يجب ..

ــ انى أعرف جيداً أن بناء الروتوندا هو أعضائى الجنسية ، وأن المنطاد المربوط اليها هو القضيب الذى أشكو مما به من ارتخاء ..

ونزيد نحن الامر وضوحا ، فنقول أن الروتوندا هى بمعنى أدق العجيزة ، ويدخلها الطفل عادة ضمن الاعضاء الجنسية .. والبناء الصغير الذى أمامه هو كيس الخصيتين ، والمنطاد هو القضيب فعلا ، وأما سؤال أبيه عن معنى هذا كله وجدواه ، فهو وضع مقلوب فى الحلم على طريقة الابدال التى تحدثنا عنها آنفا .. والصحيح أنه هو الذى يسأل أباه ، ولما سألته فى ذلك ، عرفت أنه لم يوجه الى والده سؤالا كهذا فى أى يوم .. فيكون ورود هذا الجزء من الحلم تعبيرا عن رغبة أضمرها الحالم فى الاستفسار من أبيه

وأما الرحبة التى على أرضها لوح من الصفيح ، فليست رمزا لانها جزء مستمد فعلا من مهنة والد الحالم ، وكان قد عمل فيها منذ مدة ، ولما كان فتى مثاليا من ناحية الامانة فى العمل والتجارة فقد أثاره ما اكتشفه فى مؤسسة أبيه من تصرفات غير مشروعة ..

فلو وضعنا هـذه النقطة فى موضعها المتمم للجملة السابقة لكانت :

ـ أخشى اننى اذا سألت أبى أن يوضح لى هذه الامور الجنسية بصراحة أن يخدعنى كما يخدع الناس فى مزاولة مهنته ..

واما رغبة الاب فى أخذ جزء من لوح الصفيح خلسة ، فهو أيضا نوع من الابدال حل فيه الاب محل الابن ، وهو رمز للعادة السرية . وتعليق الحالم بأن من الممكن عدم التخلى ، معادل للرغبة فى صلات جنسية سافرة

ويزيد الامر وضوحا أن رمز الكهوف والدرج المفضى اليها يعنى الزواج ، فصعود سلالم أو هبوطها معادل فى الحلم للاتصال الجنسى ، وأما الكهف المنضدد الجدران الوثير اللين ، فهو الجهاز الجنسى عند المرأة

وقد تولى الحالم نفسه تفسير الدهليز المفضى الى كهف آخر بأنه فى وقت مضى كان قد اتصل بالنساء ، ثم امتنع عن ذلك نتيجة ضعفه الجنسى المشار اليه فى الحلم ، وهو يرجو أن يبرأ من هذه العملية فيعاود هذا النوع من الاتصال

٤ ـ رمز المناظر الطبيعية

وهذا حلم لامرأة من العامة زوجها شرطى .. والمنظر الطبيعى فى الحلم ، خصوصا الربى التى تكسوها الاعشاب والنباتات ، معادل للجهاز الجنسى عند المرأة :

ـ هجم بعضهم على المسكن ، ففزعت وأخذت أصرخ مستغيثة بالشرطة .. ولكن الشرطى يدخل بهدوء كنيسة صغيرة تفضى اليها بضع درجات ، وكان معه أثنان من المتشردين ، وخلف الكنيسة ربوة تعلوها غابة لفاء ، وكان الشرطى يرتدى خوذة وله لحية داكنة ، وأما

المتشردان فحول خاصرة كل منهما كيس ، وكان هناك طريق يؤدى من الكنيسة الى قمة الربوة ، وهذا الطريق محفوف بالنباتات التى أخذت فى الكثافة الى أن صارت فوق قمة الربوة غابة لفاء

وسأشير هنا الى الرموز الجنسية ، فالسلم يعنى العمل الجنسى ، والرجال رمز للجهاز الجنسى عند الرجل، والشرطى يمثل القضيب وله خوذة مدببة ، ولحيته السوداء هى الشعر المحيط به ، والمتشردان اللذان لايؤديان عملا فى الظاهر هما الخصيتان ، والغرارة حول خصريهما هى كيس الخصية ، وأما الربوة التى فوقها الغابة فهى الجهاز الجنسى عند المرأة

٥ ـ رمز الرأس المقطوع

وهذا الرمز يعنى الخصاء .. وهذا حلم رآه طفل فى منتصف العام الرابع من عمره كان أبوه غائبا عن الدار منذ مدة فنعم بصحبة أمه واستئثاره بعنايتها ، وكان لا يستريح فيما يبدو لعودة أبيه ، فحلم أن أباه يحمل رأسه فى طبق واستيقظ مذعورا ..

فهذا الحلم تحقيق رغبة من جانب الطفل ضد أبيه ..

٦ ـ رمز السلالم

والحلم الذى أستطيع أن أورده عن السلالم وما ترمز اليه من الاتصال الجنسى هو حلم أحد المرضى .. وكان ينفر من الجنس مشمئزا ، بسبب مرض عصبى كان يثبت كل تخيلاته الجنسية على والدته ، وكثيرا ما كان يحلم بأنه يصعد السلالم معها ، وكنت قد نصحته بنوع معين من العلاج ، فحلم بأن معلم الموسيقى يوبخه على عدم اتقان السلم الموسيقى ..

وواضح أن السلم الموسيقى انما هو نوع من السلالم التى ترمز الى الاتصال الجنسى ، وتوبيخ معلم الموسيقى رمز لتوبيخى اياه على امتناعه التام عن الفعل الجنسى بصورة مرضية ..

٧ ــ الاصحاء والرموز

ويعتقد بعض الكتاب ، ومنهم هافلوك اليس ، أن هذا النوع من الرموز لا يظهر الا فى أحلام المرضى بأمراض عصبية .. أما الاسوياء فلا يعتد فى أحلامهم بتلك الرموز ، لان هذه الموضوعات ليست عندهم محل كبت أو منع

أما نحن فنعتقد أن الرمزية هى لغة الحلم عند المرضى وعند الاصحاء ، وكل ما هناك أن استخدام المرضى للرموز فى أحلامهم أكثر وأشد ، أما الرموز فى أحلام الاصحاء فأوضح وأبسط ولذا يكون تفسيرها أسهل ..

وللتدليل على ما اقول أروى حلم فتاة سليمة من الامراض العصبية ، ولكنها شديدة الحياء .. كنت أعلم أنها مخطوبة ، ولكن بعض الحوائل قد تؤدى الى تأجيل زفافها .. واليكم الحلم :

ــ رايتنى أزين مركز احدى الموائد بالورود بمناسبة عيد ميلاد .. وشعرت أن الحفلة فى بيتى ، وكنت سعيدة وأنا أقوم بهذا العمل ..

واستطاعت الفتاة من تلقاء نفسها أن تدرك أن الحلم فى جملته رمز لرغبتها فى الزواج .. فالمائدة الحافلة التى فى وسطها الازهار ترمز الى أعضائها الجنسية ، وسألتها عن نوع الورود التى كانت تزين بها المائدة فقالت بسرعة :

ــ أغلى الانواع التى لا يحصل عليها الانسان الا بثمن

باهظ ، فهناك زنابق وبنفسج وزهور حمراء .. !
وخطر لى على الفور أن الزنابق تعنى بالمعنى الدارج رموز الطهارة والعذرية ، وقولها عن الازهار أنها غالية انما هو تحقيق لرغبة فى أن يقدر زوجها قيمة طهارتها العذرية وأن يؤدى لها ما تستحقه من التقدير والتكريم
وأما البنفسج والقرنفل .. فيقترنان فى الذهن بمعان جسدية تختلف عن طهارة الزنبق .. فكأنها تجمع فى لا شعورها بين الزهو بطهارتها والرغبة فى الاتصال الجسدى ..

٨ ــ حلم « بسمارك »

وفى مذكرات « بسمارك » نطالع حلما له ، رآه أيام الازمة النمساوية فى عام ١٨٦٣ وسجله على النحو التالى :
ــ رأيتنى أركب جوادى فى درب ضيق من دروب جبال الالب ، وسفح الجبل عن يسارى ، والهوة السحيقة عن يمينى .. والطريق تزداد وعورة وضيقا ، ثم ما لبث الحصان أن امتنع عن السير ، وكان المكان من الضيق بحيث لم أستطع المضى فى السير ، ولم استطع الرجوع أدراجى .. ولم أستطع أيضا الترجل عن الجواد ، وكان سوطى فى يدى اليسرى ، فهويت به على الجبل وصخوره الملساء .. وأنا ابتهل الى الله .. فاذا بالسوط يمتد الى ما لا نهاية ، واذا الصخرة الملساء تتهاوى ، وكأنها منظر مصنوع من الورق المقوى فوق خشبة مسرح ، وتنفسح أمامى طريق واسعة من تحتها تلال وغابات على غرار المناظر المعهودة فى بوهيميا ، وتراءت على البعد الفيالق البروسية وبنودها تخفق فوق رؤوسها ، فشعرت وأنا فى الحلم بالفرح الشديد ، وفكرت أن أبشر به جلالة الملك

ثم استيقظت من حلمى منشرح النفس وقد قويت روحى المعنوية ..

ومن الواضح أن المسلك الصعب الذى يبدو فى الجزء الاول من الحلم ، انما هو اشارة الى المأزق الذى كان يشعر به « بسمارك » فى تلك الفترة السياسية الحرجة ، وليس ببعيد أنه فى تلك الليلة أطال التفكير فى الموقف قبل أن ينام ويظهر أن عزة نفسه لم تسمح له بالاستقالة بسبب الازمة ، وهذا ما عبر عنه الحلم بعجزه عن التراجع أو الترجل ..

أما بقية الحلم فواضح أنه تحقيق رغبة الحالم فى انفراج الازمة بمعجزة ، وأن يرى الجيــوش البروسية مظفرة منفردة بالسلطان ..»

وقوة « بسمارك » فى أنه لم يكتف بتحقيق الرغبة فى الحــلم ، بل فرض رغبته على عالم الواقع .. وجــدير بالذكر أن السوط الذى ضرب به الصخر شبيه بالعصا التى ضرب بها موسى البحر ففلقه نصفين رمزا للمعجزة





الفصل الخامس

أضغاث أحلام • أحلام غير معقولة



أضغاث أحلام

كل منا مرت به أحلام غير معقولة .. ونحن فى العادة لا ندقق فى تأويل هذه الاحلام ، ونكتفى بأن نصفها أضغاث ولكننا فى مثل هـــذا البحث عن مصادر الاحلام ، لا نستطيع أن نغفل هذا الجانب اغفالا تاما كما يصنع سواد الناس .. بل نرى حسب منهجنا أن هـــذه الاضغاث المزعومة لها أغراض مثل سائر الاحلام رغم عدم معقوليتها ، وسأضرب أمثلة لاحلام تبدو غير معقولة فى الظاهر ، حتى اذا أمعنا النظر فيها وجدنا لها مغزى ، وسأضرب فى البداية أمثلة يبدو فيها الاب الميت منذ زمن وكأنه على قيد الحياة ..

وأول هذه الاحلام ، رآه مريض من مرضاى مات أبوه قبل تاريخ هذا الحلم بست سنوات كاملة :

— كان أبى مسافرا بقطار الليل ، فخرج القطار عن القضبان .. وكان من أثر ذلك أن تهشم رأس والدى بين حطام المقاعد حتى صار كالفطيرة ، ورأيته بعد هذا مسجى فى فراشه وفوق حاجبه الايسر جرح طولى .. ثم أعجب من أن يصاب أبى بهذه الكارثة لانه كان قد مات من قبل ! وأدهش لان لون عينيه بدا فاتحا للغاية !

والذى يتبادر الى الذهن لاول وهلة أن الحالم كان قد نسى واقعة وفاة أبيه منذ سنوات طويلة ، ثم تذكر فى أثناء الحلم تلك الحقيقة فدهش لها .. بيد أن هذا التعليل

لا جدوى منه ، وحقيقة الامر أن هذا الشخص كان قد كلف نحاتا أن يصنع تمثالا نصفيا لابيه منذ مدة ، وقبل الحلم بيومين ذهب الى « ورشة » النحات وشاهد مشروع التمثال ، وكان النحات يسترشد فى صنع التمثال بالصور الشمسية لانه لم يكن رأى الفقيد فى حياته قط ، وخيل الى الحالم أن تمثال والده قريب ما بين العارضين جدا ، كأنما قد ضغط بين قوتين متقابلتين .. ومن هنا حلم أن حطام المقاعد فى القطار قد أطبق على رأس أبيه من جانبيه ، يضاف الى هذا انه كان من عادة ذلك الوالد ، اذا أضناه التفكير أو حزبته مشاغل الحياة ومآزقها ، أن يضم جانبى رأسه بين كفيه ..

ويذكر الحالم أيضا أن مسدسا انطلق خطأ ذات يوم فى الحجرة التى بها أبوه ، فاسودت عينا الوالد بشدة .. وهذا هو ما قلبه الحلم على حسب منهج الابدال ، فصار لون عينيه فاتحا بدرجة تدعو للدهشة ..

وأما ما رآه فى الحلم على صورة جرح رأسى فوق الحاجب الايسر ، فهو نوع من الابدال أيضا لخط مستعرض فى جبهة أبيه ــ وفى ذلك الموضع بالذات ــ كلما استغرقه التفكير ، بيد أن الابدال فى هذه المرة لم يكن حرا بل جاء نتيجة اندماج مع شرخ رأسى أصاب زجاجة التصوير التى استعملها الحالم قبل يومين من الحلم لالتقاط صورة ابنته الصغيرة ، فظهر الشرخ فى الصورة ، وكأن الطفلة مصابة بجرح رأسى فوق حاجبها الايسر ، وقد تشاءم الحالم لانه قبل وفاة أمه بيومين سقطت من يده زجاجة صورتها السلبية فتحطمت

وهكذا ترتد هذه المتناقضات « الحلمية » الى أشتات من الذكريات لها ما يبررها من الاحداث السابقة على الحلم والذكريات البعيدة معا ..

وأضرب مثلا ثانيا من أحلامى شخصيا ، وكان والدى قد مات قبله بسنوات :

ـ رأيت والدى بعد موته يقوم بالتوحيد بين طوائف المجريين المتنابذين .. ثم تراءت لى صورة غير واضحة لجمهور كبير من الناس كأنهم فى مجلس الرايخ محيطين بشخص واقف فوق مقعد ، وعندئذ أتذكر أن أبى كان لحظة موته يشبه الزعيم الايطالى « غاريبالدى » شبها كبيرا ، فيسرنى فى الحلم أن هذا الشبه قد صار حقيقة واقعة ..

وقد رأيت هذا الحلم فى وقت اشتد فيه تنابذ المجر فيما بينهم .. وأما الصورة التى كأنها لمجلس الرايخ فاعتقد أنها اعادة لصورة تاريخية رأيتها فيما مضى ، وقد احتل والدى بوقوفه فوق المقعد مكان الرياسة ، وهذا معقول بالنسبة لمن قام بتوحيد صفوف الامة .. وأما أن أبى لحظة موته كان يشبه « غاريبالدى » فحقيقة واقعة أيضا ، واذا كان هذا الشبه قد ظهر لنا عقب موت أبى ـ لا فى حياته ـ فانه يضاهى قيام أبى بدور الزعامة السياسية بعد أن مات ، وليس وهو على قيد الحياة ..

ولكن لماذا اختار الحلم لوالدى بلاد المجر ميدانا سياسيا لا ايطاليا مثلا مع أنه كان يشبه « غاريبالدى » عقب وفاته ؟

وهنا يبرز التعليل الباطن أو الرابطة الكامنة وراء أجزاء الحلم ، فقد كان أهم ما يشكو منه أبى هو شلل المصارين .. ذلك الشلل الذى كان يعرقل عمليات الجسم ويتهدد الحياة ، وفى زمن الحلم ، كانت المجر على شفا الانهيار لان المناورات البرلمانية كانت تعرقل وتكاد تشل

الحياة السياسية .. فالجامع بين المجر ووالدى هو خطر الشلل والتعويق فى الحالتين ..

وأما الرغبة التى حققها الحلم ، فهى أن تكون ذكرى الاب بعد وفاته ذكرى عاطرة تملأ النفس بالخشوع والاجلال ، وبهذا الحلم يوجد المبرر لتشبيه الوالد بالزعيم « غاريبالدى » ، ولا يكون الشبه بينهما مجرد صدفة سطحية عارضة ..

***

وهناك مبرر لا يستهان به لظهور الاب فى الحلم بعد وفاته وكأنه على قيد الحياة.. وذلك أن نفوسنا مشغولة دائما بآبائنا الراحلين ، وما أكثر المواقف التى يقول فيها المرء :

ـ ماذا كان أبى حريا أن يقول فى هذا الموضوع ؟

ولا يملك الحلم لترجمة هذه الامنية المتنعة الا أن يفترض أن الرغبة تحققت رغم أنف الحقيقة الضخمة وهو موت ذلك الوالد منذ زمن ، فيجعل الوالد يتصرف كما لو كان حيا لم يغيبه الثرى ..

***

وهناك نوع آخر من الاحلام ، يرى فيه الحالم ذويه الراحلين .. وكأنهم على قيد الحياة ، وفى جزء من الحلم يبدو أنهم رغم وجودهم على قيد الحياة فى عداد الموتى مما يجعل الحلم غير معقول ، ولكنه فى الحالين يعبر عن تحقيق رغبة الحالم ..

وأعرف شخصيا رجلا أفرط فى عنايته بأبيه فى مرضه الاخير ، وحزن لموته حزنا شديدا .. وبعد وفاة أبيه بمدة طويلة روى لى هذا الحلم :

ـ رأيت أبى وكأنه على قيد الحياة يكلمنى مثلما كان

يفعل فى حياته .. ولـكنى كنت أعلم وأنا اكلمه أنه ميت، أما هو فلم يكن يدرى ذلك !

وتفسير هـذا الحلم المتناقض أن الحالم أثناء قيـامه بتمريض أبيه تمنى له وهو لا يدرى أن يموت كى لا يطول عذابه بغير طائل .. فلما حقق الواقع هـــذه الامنية اللاشعورية ، ثار فى النفس فى مقابلها ندم لا شــعورى أيضا .. كأنما هذه الامنية قد عجلت حقا بموت الاب ، وهكذا ظهر الاب فى الحلم وكأنه لم يمت ارضاء لرغبة الندم وعزاء عنها ، وكان فى الوقت نفسه ميتا من غير أن يعلم ذلك وكان ذلك تحقيقا للامنية اللاشعورية !

وأنا أعترف أن الاحلام التى يظهر فيها من يحبهم الحالم من الاموات وكأنهم على قيد الحياة ، انما هى أحــلام عسيرة ليس من السهل تفسيرها تفسيرا واضحا مقنعا فى جميع الاحوال .. والذنب فى ذلك ليس ذنب منهج التفسير العلمى بل مرجعه الى ما فى علاقة الحالم بهؤلاء الاشخاص من تناقض ، وانى لاقر أن منهجى فى تفسـير الاحلام لم يتمكن من تذليل جميع العقبات وحل الالغاز الـكثيرة التى تحفل بها مثل هذه الاحلام المعقدة

***

وسأروى الآن حلما من أحلامى الشخصية استطعت أن أضبط فيه مصادر الخلط التى جعلته غير معقول ..

وهذا الحلم جاء عقب رؤيتى للكونت تون ــ عنــد قيامى بالاجازة الصيفية ــ وقد رأيتنى راكبا عربة من عربات الخيل ، وآمر الحوذى أن يذهب بى الى المحطة ، وشعرت فى الحلم أن الحوذى يبدى ممانعة ، وكأنه يحتج لانى أزعجته ، فأقول له :

ــ أنا طبعا ليس فى وسعى أن أركب معك فى عربتك كل مسافة القطار !

والمدهش أننى ما أن قلت له هـــــذا فى الحلم حتى أحسست وكأنى ركبت عربته بالفعل نفس المسافة التى يقطعها القطار !

وابدأ بالظروف التى أحـاطت بى فى اليوم الســابق للحلم ..

ركبت عربة أجرة كى أتوجه الى شارع بعيد بالضواحى .. وكان الحوذى يجهل موقع ذلك الشارع بالضبط ، ولـكنه لم ينبهنى الى ذلك ، بل فعل ما يفعله اهل هذه الطائفة دائما ، افترض أننى أجهل المـكان وراح يضرب على غير هدى ، ولـكنى فطنت الى ما فعل بعد حين ، فارشدته الى الطريق الذى ينبغى أن يسلـكه ، وأتحفته بكلمات توبيخ لاذعة ، وهنا أحب أن انبه القارىء الى أن الحوذية يرتبطون فى ذهنى بنوع من الارتبـاط الخاص بطبقة النبلاء ، لان نبلاء النمسا مغرمون بقيادة العربات بأنفسهم .. وكان الـكونت تون هو حوذى عربة الدولة!

والعجيب أن الحوذى فى الحلم لم يكن يمثل الكونت تون، بل كان يمثل شقيقى ، والمناسبة التى دعت الى ذلك أننى كنت قد اعتزمت فى هذه السنة أن أقوم معه برحلة لايطاليا التى أحبها جدا ، بيد أنى ألغيت هـذه الرحـلة توبيخا لاخى اذ بلغنى تذمره من سفرى معه لانى أزعجه بالتنقل السريع من بلد الى بلد ، ونهمى الى مشاهـدة آلاف الاشياء الجميلة فى أقصر وقت

وفى المساء الذى رأيت فيه الحلم ، ركب أخى معى عربة الى محطة السكة الحديد .. ولـكن قبل أن تصل العربة الى المحطة الرئيسية ، قفز أخى منها الى محطة خطوط الضواحى ليذهب الى ضاحية « بوركسدورف » مع انه كان فى استطاعته أن يذهب اليها بالخط الرئيسى ، وبذلك يبقى معى مدة أطول ، وهذا هو مصدر ما رأيته فى الحلم ،

وكأنى ركبت العربة نفس المسافة التى يقطعها القطار ، وكل ما هناك أن الحلم استخدم الضد أى عكس ما حدث فعلا ، وهذا العكس ترتب عليه أن يستخدم الحلم العربة بدلا من القطار ، وأن يحل الحوذى محل أخى .. ومن هنا بدا الحلم غير معقول

***

وسأذكر الآن حلما غير معقول كذلك محوره أبى المتوفى:
ــ رأيت أنى تسلمت من بلدية مسقط رأسى اخطارا تطالبنى فيه بسداد مبلغ معين ، بدعوى أنه فى عام ١٨٥١ أصيب شخص باغماء وهو فى بيتى ، ونقل الى المستشفى حيث استبقوه هناك وأنفقوا على علاجه ، وما أن اقرأ فى الحلم هذا التبليغ أو الانذار حتى أنفجر ضاحكا لانى لم أكن ولدت فى عام ١٨٥١ المزعومة ، وبفرض أن هـــذا الانذار موجه الى أبى ، فابى قد مات منذ زمن ، ورغم علمى بذلك أذهب وأنا فى الحلم الى الحجرة الاخرى حيث أجد أبى فى فراشه واستوضحه المسألة ، وكم كان عجبى اذ يقر أبى أنه أفرط فى الشراب ذات مرة عام ١٨٥١ مما أدى الى القائه فى الحبس ، وكان وقتئذ يعمل لحســاب شركة كذا ، فأسأله مستنكرا : وهل كنت مدمنــا على السكر أيضا ؟ وهل مع ذلك تزوجت فيما بعد ؟ .. ثم أقوم وأنا فى الحلم بحسبة أعرف منها أننى ولدت عام ١٨٥٦ ، ولكن يخيل الى فى الحلم أن هذا العام هو التالى مباشرة لعام ١٨٥١

والمدهش فى هذا الحلم أن المشهد الاساسى منه عبارة عن مشادة حامية سافرة بينى وبين أبى ، وأنى لم أتورع عن صب التجريح اللاذع عليه ، ولا نكاد ندرى كيف يمكن لمثل هذا العمل ــ لو أنه كان صادرا عن رغبة لا شعورية ــ

أن يمر بهذا الوضوح الصريح بين سمع الرقابة الشعورية وبصرها ..

بيد أن هذه الحيرة تتبدد سريعا اذا فطنا الى أن الوالد المتوفى ليس فى هذا الحلم الا ستارا لشخص آخر ، وأن هذه المشادة انما تحدث فى الحلم بينى وبين ذلك الشخص الآخر فى الحقيقة .. فكأن الحلم فى هذه المرة قام بعملية قلب أو ابدال غريبة .. اذ أن الحلم حين يخرج الابن عن الاحتشام نحو الوالد ، يدع شخصا آخر يقوم بالحلول محله ارضاء لمقتضيات الرقابة ، أما فى هذا الحلم بالذات ، فقد كان الاب مجرد قناع تختفي وراءه الشخصية الحقيقية لمن أصب عليه سخريتى ، ولا أشعر فى الحلم بأى تأنيب أو حرج لان الشخص الحقيقى الذى أهاجمه وأجرحه ليس هو أبى بل الشخصية المختفية من ورائه

ومناسبة هذا الحلم أننى كنت قد سمعت ، قبله مباشرة ، أن أستاذا من أكبر الزملاء مقاما ويعتبر حجة وحكما فى الوسط العلمى قد صارح الناس باستنكاره لانى ظللت أعالج مريضا من مرضاى بالتحليل النفسى على مدى خمس سنوات ..

ووجه الشبه بين هذا الاستاذ الزميل الكبير وأبى ، أنه كان يقوم بالنسبة لى ببعض ما صار أبى عاجزا عن القيام به نحوى من المسئوليات بسبب موته .. فلما بلغنى عنه أنه يهاجمنى فى المجالس نشب فى داخلى صراع انفعالى كالذى ينشأ عادة فى سريرة الابن حين تضطرب علاقته بأبيه

وأما مطالبتى بما لا يعقل أن أطالب به من الغرامة لانى لم أكن ولدت فى تاريخ استحقاقها ، فهو كناية عن احتجاجى على ذلك الزميل لانه يلومنى على ما لم يكن فى وسعى أن أتفاداه .. فما ذنبى اذا كانت حالة المريض

لم تسمح لى بعلاجه فى مدة أقل من هذا ؟ وهل توجد طريقة أخرى لعلاج مثل هذه الحالة فى مدة أسرع ؟ .. ان الزميل الكبير يعرف كل هذا ، فليس من المعقول أن يلومني عليه لوما لا أستحقه ، كما أننى لا أستحق الغرامة التى لم أكن ولدت حين توقيعها !

وأما ذهابى الى الغرفة الثانية ، فدليل آخر على أن أبى الميت كان قناعا لذلك الشخص الحى ، وأن ذهابى اليه فى الحلم كأنه صيغة توبيخ لذلك الزميل الكبير اذ يقارن موقفه منى بموقف أبى منى حين ذهبت اليه فى حجرته بالبيت ، وأخبرته بنبأ خطبتى لزوجتى من غير أن أستأذنه سلفا ، رغم ما كان أبى يتمتع به فى الاسرة من سلطان ابوى مطلق ومهابة على الطراز القديم .. فقد اظهر أبى فى تلك المناسبة سماحة لن انساها

وكأنى بهذا اقارن فى الحلم بين سماحة أبى واغضائه عن تناسى مكانته وحقوقه ، وبين مسلك من حل محل أبى اذا هاجمنى من غير وجه حق

وأما سبب توبيخى فى الحلم لابى ، وتعييرى اياه بالسكر ، فينصرف أيضا الى الشخص الحقيقى الذى كان يمثله أبى فى الحلم .. فان هذا الشخص كان قد اعترف لى بأنه فى صدر شبابه كان قد أدمن نوعا من المخدرات الطبية حتى ساءت صحته وعولج فترة طويلة فى احدى المصحات

وعلى هذا الاساس ، يكون تعييرى موجها الى ذلك الاستاذ العظيم وهو الدكتور ماينيرت ، بأن من كان مثله قدوة لرجال العلم ينبغى الا يلوم الناس على هفواتهم ، وفى صفحاته مثل تلك السقطات المخجلة !

وأما اعتقادى فى الحلم أن عام ١٨٥٦ هو التالى مباشرة لعام ١٨٥١ فهو ترجمة مباشرة لقولى أن مدة الخمسة

أعوام التى طالها العـــلاج ليست بذات قيمة ، وأنها لا تساوى أكثر من عام واحد فى الواقع لان الذنب ليس ذنبى بل ان ظروف الحالة هى التى أوجبت ذلك

وازيد الامر وضوحا ، فأقول أن لمدة الخمسة اعوام علاقة أخرى لشعورى .. غير موضوع تشهير العلامة ماينيرت بى ، فتلك الفترة نفسها هى التى ظللت أؤجل فيها زواجى ، وجعلت خطيبتى تنتظر اتمام الزواج كل تلك المدة .. فانا فى الحلم أيضـا أهون على نفسى هـذا الارجاء !



أحلام غير معقولة

وقد تتخذ الاحلام غير المعقولة علم الحساب ، وما فيه من أرقام ، مادة لاضغاثها .. ولذا سأروى حلمـا من احلامى شخصيا كنموذج لتلك الطائفة :

ـ حلمت أن صاحبـا لى هو « م » نشرت احـدى الصحف مقالا ضده اعتقدنا كلنـا أنه تجاوز كل حد ، وكان صاحب المقال هو الشاعر العظيم « جوته » بقضه وقضيضه ، وتأذى « م » كل التأذى من المقال ، وجأر منه بالشكوى الى الحاضرين فى احدى الولائم ، ولـكنه لم يسمح لهذه المسألة الشخصية أن تقلل من تقديره لجوته .. وأحاول وأنا فى الحلم أن أراجع التواريخ ، فأذكر أن « جوته » مات عام ١٨٣٢ ، فلا بد أن يكون مقاله ضد « م » سابقا على هذا العام ، وبالتالى يكون « م » وقتئـذ فى مطلع شبابه ، ويخيـل الى أنه غالبا كان فى الثامنة عشرة ، وأشعر أننى غير متأكد فى أى عام نحن الآن ، ويؤثر ذلك على حسابى ويكتنفه الغموض .. ولـكنه أدرك أن هجوم « جوته » على صاحبى جاء فى غضون مقال « جوته » المشهور عن الطبيعة ..

وهذا ولا شك حلم بالغ الغاية من السفاهة التى يبدو من المستحيل العثور على تبرير لها .. ولـكنى سأذكر الآن ما يكتنف الحلم من ذكرياتى ..

أما « م » فقد تعرفت به لاول مرة وسط مجموعة من الرفاق المدعوين الى وليمة ما ، ومنـذ أمد قصـير

طلب منى أن افحص شقيقا له يعتقد انه يعانى من أعراض اضطراب عقلى معين ، وثبت أن «م» لم يجانب الصواب فى حدسه عندما أتانى بأخيه فى عيادتى وفحصته ..

وفى غضــون هــذه الزيارة الاولى أتى المريض شيئا سخيفا ، فقد أحرج أخاه من غير مبرر بأن فضح جانبا من سفاهات صباه .. !

وفى هذه الزيارة ايضا ، سألت المريض فيما سألته عن عام مولده ، وكان من اجــراءات الفحص أن يقوم بعمليات جمع صغيرة كى أعرف الى اى مدى يصل به ضعف الذاكرة ، فاذا به يقوم بتلك العمليات على خير وجه

ولعل الحلم يشير الى هــــذه الوسيلة من وسائل الامتحان ، اذ قمت أنا فى الحلم بما كنت أتوقعه من المريض شقيق « م » فلم أعرف بالضبط فى أى عام نحن ..

أما المقال الهجومى فهو يشير الى مسألة أخرى وقعت منذ زمن وجيز .. فلى صديق يصدر مجلة طبية ، وقد نشر فى تلك المجلة هجوما عنيفا تجاوز كل الحدود المعقولة ضد كتاب لصديقى المحترم « ف » ، وكاتب المقال شاب صغير السن جدا وقدرته على التمييز محدودة ، فوجدت من واجبى أن أتدخل .. فناقشت صــــاحب المجلة معتمدا على ما بيننا من صداقة ، فأبدى أسفه الشديد لاقدامه على نشر ذلك المقال .. ولــكنه لم يفعل شيئــا لتصحيح الوضع فحررت اليه خطاب استقالة من تحرير قسم من مجلته ، وأعربت له فى ذلك الخطاب عن ابقائى على مودتنا الشخصية

وواضح أن هذا هو ما يشير اليه الجزء من الحلم الخاص بنقد « جوته » لصديقى « م » .. ولــكن الاوضاع فيه مقلوبة كما هو معهود فى كثير من الاحلام ، فالمهاجم الناقد

عظيم القدر كبير السن ، والمنقود شاب فى حداثة العمر ، ورغم عنف الهجوم بقيت العواطف الشخصية بمنجاة من التأثر بها ..

ولكن ما الذى أثار موضوع « الطبيعة » فى الحلم ؟..

منذ عهد غير بعيد كانت احدى مريضاتى تصف حالة أخيها الذى كان مصابا أيضا بمرض عصبى ، وأخذت تقلد صياحه أثناء النوبة :

ـ أيتها الطبيعة ! .. أيتها الطبيعة ! ..

وظن الحاضرون أن هذه الصيحة صدى لمطالعات المريض فى أدب « جوته » ومقاله المشهور عن الطبيعة.. أما أنا فغلب على ظنى أن المريض يقصد معنى جنسيا إرتبط بالمغزى الدارج لكلمة الطبيعة على ألسنة العوام .. ثم صدقت الحوادث ظنى بعد ذلك ، عندما عمد الشاب المسكين فى احدى نوباته التالية الى استئصال أعضائه التناسلية ، وكانت سنه فى ذلك الوقت لا تزيد عن ثمانى عشرة سنة !

وسن الثانية عشرة هو نفس السن الذى عزاه الحلم الى صديقى « م » عندما حطمه « جوته » بهجومه الساحق ..

وواضح أيضا أن الحلم يسلك مسلك التهكم الشديد عن طريق قلبه الاوضاع ، فهو يفترض شيئا سخيفا وغير معقول .. وأعنى به مهاجمة « جوته » العظيم لشاب لم يتجاوز سن الغلمان ، فلا بد أن يكون أشد من ذلك هذرا ومدعاة للاستنكار أن يهاجم شاب فى عمر الغلمان شيخا جليلا من الخالدين مثل « جوته » الذى يقوم فى الحلم مقام صديقى المؤلف « ف »

وأذكر أيضا حلما من الاحلام غير المعقولة التى تراءت

لى ، نرى فيه استخداما للصيغ اللفظية لا يسيغه الفهم لاول وهلة :

ــ رايته انه جرت فى مدينة روما أمور تحتم بسببها ترحيل الاطفال الى موضع مأمون ، وقد تم ذلك فعلا . . والمنظر امام مدخل المدينة ــ وهو ذو مصراعين على الطراز العتيق ــ وقد ادركت وانا فى الحلم أن ذلك الباب هو الذى يوجد حقيقة فى مدينة سيينا مع أن المشهد فى روما ، وأجد نافورة من النافورات المنتشرة فى ايطاليا، فأجلس على حافتها واجما تكاد تسيل دموعى ، وتقبل انثى لعلها راهبة أو مربية ، ومعها طفلان تعطيهما الى والدهما الذى كان بالقرب منى .. ولكن أكبرهما هو ابنى البكر بلا شك ، أما الولد الآخر فلا أتبين وجهه ، وتطلب منه التى جاءت به أن يمنحها قبلة وداع ، فأتبين أن انفها أحمر اللون بصورة واضحة ، ويرفض الطفل أن يقبلها .. بيد أنه يشد على يدها مودعا يقول لها كلمة غريبة ليس لهـــا معنى لغوى ، ثم يلتفت نحوى ، أنا والرجل الآخر ، ويقول كلمة قريبة منها فى اللفظ ، وليس لها ايضا معنى ولكن يخطر ببالى وانا فى الحلم أن هــذه الكلمة الاخيرة تعنى انه يفضلنا عليها

والآن لابد من التمهيـــد لهذا الحلم بالذكريات التى حدثت قبله ، فقد شهدت مسرحية اثارت مناظرها بعض اجزاء هذا الحلم ، وواضح ايضا أن متاعب اليهود لهــا صلة بالافكار المنبثة فى طياته ، فاليهودى فى المانيا والنمسا وما اليهما من البلدان يشعر بالهم لانه لا يضمن لابنائه وطنا مستقرا ، ولا يعرف كيف يوفر لهم نوعا مناسبا من التعليم يسهل لهم الحيـــاة عندما تضــطرهم الظروف للرحيل من بلد الى آخر فجاة

ومدينة سيينا مشهورة بنافوراتها البديعة مثل روما،

ولما لم أكن قد رأيت روما عندئذ من قبل ، فلم يكن بد من أن أستدل عليها فى الحلم بمنظر رأيته من قبل وهو مدخل مدينة سيينا ، وبالقرب من هذا الموضع كنت قد رأيت فى رحلتى بناء كبيرا علمت أنه مصحة أمراض عقلية ، وقبيل الحلم بلغنى أن أحد أبناء ديانتى اضطر للاستقالة من المنصب الكبير الذى كان يحتله عن جدارة فى مصحة كبيرة للامراض العقلية

وأما الجلوس على النافورة والتهيؤ للبكاء ، فمشهد مستمد من المزمور الذى يصف نفى اسرائيل الى أرض بابل ويقول : على أنهار بابل هناك جلسنا وبكينا عندما تذكرنا صهيون ..

وأما الكلمتان اللتان قالهما الطفل فى الحلم فقريبتان من كلمة التحية الالمانية المألوفة « الى الملتقى » .. ولكن جرسها اللفظى مستمد من أصل عبرى قديم معناه الفجيعة ، وأما الكلمة الاخرى التى تفيد التفضيل وليس لها معنى لغوى أصلى ، فلعلها اشارة الى العجين غير المختمر الذى يفضل استخدامه اليهود

فوراء هذا الحشد من التخبط فى الحلم الوان من التيارات النفسية والاهتمامات التى تشغل السريرة .. فلو عرفنا كيف نتعمقها لوصلنا الى كثير من الدراية النافعة ببواطن أحوالنا ، وكأن الحلم حين يتظاهر بالتخبط والجنون يسلك مسلك الامير العظيم « هملت » حين اتخذ من الجنون قناعا ليلقى بتأملاته الحكيمة التى لايبتذلها من لايدققون فى معرفتها .. !

لا يمكن أن يحتوى حلم الانسان السوى على الخصوص على هراء غير معقول ، ولكن الهراء يخفى تحته — عن قصد — سخرية لاذعة أو تبكيتا .. وكأنه يصف

بالتخبط ومجافاة العقل والمنطق من يشير اليهم من الاشخاص والاحداث

ومن الواجب عندما يروى الانسان فى حال اليقظة حلما ، من النوع غير المعقول ، أن يدخل فى حسابه ما يستثيره تذكر اجزاء الحلم من تعليقات ومشاعر ، فان هذه تعتبر الى حد كبير عنصرا من عناصر المضمون الخفى للحلم ، وينبغى أن يكون لها شأن مذكور فى تأويله ..

***

واتماما للفائدة ساذكر نماذج تعين على توضيح الفكرة ..

قالت احدى السيدات انها لا تستطيع أن تتذكر حلمها لانه ليس واضحا لها الآن كما يجب ، فكل ماتعرفه انها رات فى الحلم شخصا ليست واثقة هل هو زوجها أم والدها .. ثم رات فى الحلم منظرا ثانيا جاء فيه شىء عن آنية السماد

ولما سألتها عما يثيره ذكر السماد لديها من الخواطر، قالت :

ــ فى الفترة الاولى من زواجى لم أكن متمرسة باعمال البيت ، فقلت على سبيل المزاح امام قريبة لى : أن أول ما سأفعله هو شراء وعاء سماد جديد للبيت !.. واذا بهذه القريبة تفاجئنى فى اليوم التالى باهدائى صندوقا للسماد ملىء بالازهار الجميلة

وهذا الجزء من الحلم ليس منقطع الصلة بتعبير المانى شعبى معناه التنصل من التبعة أو التبرؤ من النسب ، وفى نهاية تحليل حلم هذه السيدة ، اكتشفت أن مضمونه يتصل برواية سردت على مسامعها وهى صغيرة عن شابة وضعت طفلا لم يعرف أحد من عسى يكون أبوه

وهكذا يخفى الحلم المطموس الذى طمرته الذاكرة عند اليقظة صلة قد لا يجد الحالم فى حال يقظتـــه ما يغريه باستعادته

***

ومن هذا القبيل أيضا حلم رآه أحد مرضاى ، واعتقد انه شديد الاهمية فى علاجه التحليلى ، فقرر أن يذكره لى بحذافيره ، وقمت بتحليل الحلم فاذا به يفضح بصورة جلية علاقة جنسية عقدها الحالم فى فترة العلاج ، وكان متشددا فى كتمانها عنى .. فقام هذا الحلم بارغامه على الاعتراف وهو لايدرى !

***

ونموذج ثالث كنت انا الذى رايته فى أحلامى :

ـ رأيتنى متوجها الى المستشفى مع صديقى « ب » مخترقين حيا تكثر فيه الحدائق والمنازل المتباعدة ، وخطر لى وأنا أحلم أنى رأيت هذا المشهد مرارا فى أحلام سابقة، ولم أتبين الطريق الذى نسلـكه .. فأرانى رفيقى «ب» شارعا يؤدى الى مطعم يقع على ناصيته ، وقاعة الطعام داخل الجدران لا فى الحديقة ، وسألت هنالك عن السيدة « د » فقالوا لى انها تقيم فى حجرة خلفية صـغيرة مع ثلاثة أطفــال ، فاتجهت الى هنالك .. ولـكنى قبل أن أصل الى الحجرة قابلت شخصا لم أتبين ملامحه ، وفى رفقته طفلتاى الصغيرتان ، وصحبتهما بعد أن جلست معهما فترة ، ودار بذهنى السخط على زوجتى لانهـا تركت البنتين فى ذلك المكان ..

وأول ما خامرنى عند اليقظة هو السرور العظيم لاننى بهذا الحلم سأعرف بطريق مباشرة المعنى لتذكر الحالم انه راى حلما سابقا مماثلا ..

هكذا ظننت فى البداية ثم عرفت أن سرورى لم يكن لهذا السبب بل للمضمون الخفى الذى يكمن وراء الحلم ، وهو أننى أنجبت أطفالا .. فرفيقى « ب » الذى رأيته يصحبنى فى الحلم كان ندا لى فى الطفولة والشباب فعلا ، ويماثلنى فى كل ظروفى ، ثم سبقنى أشواطا فى الناحيتين المادية والاجتماعية ، وتفوق على فى كل شىء الا أنه لم يرزق من زواجه بأطفال ..

وأضيف الى ذلك أننى فى اليوم السابق على الحلم ، قرأت فى الصحف نعى السيدة « د » التى حلمت أنى أسأل عنها ، وكانت وفاتها أثناء الوضع ، وعلقت زوجتى على ذلك بأن القابلة التى ماتت على يدها السيدة « د » هى بعينها التى تولت توليد زوجتى أصغر طفلينا

***

وأتنـاول الآن حلما من أحلامى تميز بشعور العجب الذى خامرنى فى بدايته :

ـ أرى وكأن « بروكيه » قد كلفنى بمهمة ما .. ومن عجب أن هذه المهمة تتعلق بتجهيز الجزء الاسـفل من جسمى شخصيا ، بما فى ذلك الحوض والساقين ، وأرى هذه الاعضاء أمامى ، وكأنها على مائدة حجرة التشريح ، ولـكنى لا اشعر بنقصان هذه الاعضاء من جسمى ، ولا يداخلنى أى أثر من الارتياع .. وكانت لويز واقفـة بجوارى وتساعدنى فى ذلك العمل . وأنتهى من تفريغ الحوض ويبدو الجزء الاعلى ثم الجزء الاسفل واضحين للعيان ، ولـكن المسقطين يتداخلان ، وتبدو زوائد لحمية كبيرة حمراء تدعونى وأنا فى الحلم الى التفكير فى البواسير ، ثم يتحتم رفع شىء بدا وكأنه يغطيها ، وهذا الشىء أشبه بورق مفضض مجعد ومتكسر يحتاج رفعه الى حذر ، ثم

استرددت ساقى ثانية ، وخرجت أتجول فى شـــوارع المدينة ، ولما شعرت بالتعب ركبت عربة .. وكم كانت دهشتى حين وجدت العربة توصلنى الى الباب الامامى للمنزل ، وانفتح الباب وسمح للعربة بالمرور فى دهليـز أفضى فى نهايته الى أرض خلاء ، واخيرا تجولت بين مشاهد متغيرة ، ومعى مرشد من مرشدى جبال الالب .. كان يحمل حقائبى ، ثم حملنى شخصيا مسافة ما مراعاة لما أصاب ساقى من تعب ، وكانت الارض كثيرة الوحل ، فسرنا عند حافة الطريق .. وكان هناك قوم جالســين على الارض يشبهون الهنود الحمر أو الفجر ، ومن بينهم فتاة .. وحتى ذلك الوقت كنت أســير فوق الارض الموحلة ، وأنا فى دهشة متواصلة لقدرتى على ذلك السير بعد قيامى بالتشريح ، واخيرا وصلنا الى بيت خشبى صغير فى أحد طرفيه نافـذة مفتوحة ، وهنـاك أنزلنى المرشد الى الارض ، ثم وضع لوحين من الخشب كانا معدين هناك من قبل ، وجعل طرفيهما على حافة النافذة كأنه يقيم قنطرة يعبر فوقها الهاوية من يريد الخروج من النافذة .. وعندئذ شعرت بفزع حقيقى بخصوص ساقى ، ولـكن بدلا من العبور ، رأيت رجـلين بالغين يرقدان على مقعدين خشبيين مثبتين على جدار الكوخ.. وبجوارهما ما بدا لى كأنه طفلان نائمان ، وكان الذى سيجعل العبور ممكنا ليس هما اللوحان الخشبيان بل الطفلان ، وعندئذ استيقظت وأنا فى حالة ارتياع ..

واذا راعينا مدى ما فى الاحلام من كثافة ، استطعنا أن نتصور مدى ما يقتضيه تحليل هـــذا الحلم تحليلا تفصيليا من عناء وتطويل ، ولـكنى لن أتعرض هنا الا لنقطة واحدة هى نقطة شعورى بالعجب أثناء الحلم ..

والمناسبة التى اثارت الحلم هى زيارة من لويز التى

رايتها بجانبى فى الحلم تساعدنى على العمل ، وفى هـذه الزيارة طلبت منى أن أعطيها كتابا تقرؤه ، فزكيت لها كتاب « هى أو عائشة » للروائى الانجليزى سـير « رايدر هجارد » وقلت فى أسباب تزكيتى لهذا الكتاب :

ـ انه كتاب « مدهش » وفيه معان خفية كثيرة عن الانوثة وتجددها ، وعن احساساتنا وأبديتها ..

وعندئذ قاطعتنى لويز قائلة :

ـ أعرف هذا الكتاب .. أريد شيئا غيره

ـ مثل ماذا ؟ ..

ـ شيئا من تأليفك مثلا ..

فأجبتها ضاحكا :

ـ كتبى التى يمكن أن توصف بالخلود لم تطبع بعد

فأجابتنى متهكمة :

ـ متى تظهر تبسيطاتك التى وعدت أن تكون فى متناول فهم القارىء العادى ، حتى ولو كان من‌مستوانا ؟

وعندئذ لاحظت أنها تقول ذلك الكلام ، وكأنما قد أوصاها شخص آخر أن تقوله لى .. فلزمت الصمت ، واتجه تفكيرى الى الثمن الفادح الذى سأدفعه لو أننى نشرت صفحات كتابى هـذا عن تفسير الاحلام ، لما سيترتب على ذلك حتما من كشف الستار عن أسرار كثيرة تتصل بحياتى الخاصة ومزاجى الشخصى وتكوينى النفسى ، وتذكرت على الفور تلك العبارة الشعرية البليغة التى وردت فى الجزء الاول من « فاوست » على لسان الشيطان .. اذ يقول للدكتور فاوست :

ـ خير ما يصل اليه علمك من حقائق الامور لن تجد مناصا من كتمانه فى صدرك لانك لا تجسر أن تفضى بسره لتلاميذك

ومن هنا ندرك أن مشهد تشريح الجزء الأسفل من

جسمي شخصيا انما هو كناية عن تحليلي لخفايا نفسي تحليلا لابد منه وأنا اعالج تفسير أحلامي الشخصية ..

ولكن ما الذي جاء هنا بالعجوز بروكيه ؟ ..

أن « بروكيه » هنا يأتي في موضعه الصحيح ، لانني في مستهل حياتي العلمية اكتشفت مسألة دقيقة .. ثم تركت هذا الاكتشاف مهملا الى أن عرف الشيخ « بروكيه » بأمره فوبخني وأرغمني على نشره ارغاما ، وها هو ذا يأتي في الحلم ليقوم بالدور نفسه ، دور الحث والالزام بنشر مكتشفاتي في تفسير الاحلام ..

وأما قولي في اليقظة للويز عن رواية « عائشة » انها مدهشة ، فهو مقترن أيضا بما في الحلم من مناظر الوحل والهنود الحمر والجسور المقامة فوق الهاوية والبيوت الخشبية .. وهي مناظر يكثر « رايدر هجارد » من استخدامها في مغامراته ..

والمجهول والمستحيل الذي يتحدث عنه «رايدرهجارد» والمناطق التي لم تطأها قدم انسان متحضر من قبل ، والاهوال والمصاعب ، كل ذلك في روايات « رايدرهجارد» .. ولكنه أيضا ترجمة صادقة لعالم الاحلام التي لم ينفذ اليها منهج علمي من قبل ، والتي أحاول بالمغامرة والعناء الشديد أن أصل اليها ..

والبيت الخشبي رمز للقبر .. أما الأطفال الملقون بالجدران وكأنهم أداة العبور فوق الهاوية للخروج من البيت ذي المنفذ الواحد ، فهم رمز لما يخامر الانسان من أمل في أن يصل الاعقاب من الابناء والاحفاد الى النجاح الذي يحول دونه الاجل

***

وهناك أيضا حلم انتخبه من بين أحلامي الشخصية لما

اقترن به أثناء حدوثه من العجب ، بل ومن محاولات للتأويل ، بعيدة المدى ، غريبة الوقع ، لا تخلو من ذكاء وفطنة ..

وقد رأيت هذا الحلم وأنا نائم فى القطار ذات ليلة وكأننى أسمع من ينادى : « هولتورن » .. سيقف القطار عشر دقائق :

وفى أثناء الحلم ، اتجه تفكيرى فورا الى «هولتورن» ، ثم الى متحف للتاريخ الطبيعى ، ثم الى الثورة التى نشبت هناك من الاهالى الشجعان ضد حاكم طاغية.. ولم يبالوا بتفوق جيوشه ، وان كانوا لم يظفروا بالنصر ، ان هذه هى الحركة الرجعية فى النمسا !.. وكأن هذا الموضع من أقاليم التيرول ، وأجد امامى متحفا صغيرا فيه ما تبقى من آثار أولئك الرجال الشجعان .. ولكنى لا اراها بوضوح ، وأتمنى لو نزلت من القطار ، ولكنى أحجم وأتردد ، وأرى على افريز المحطة نساء يحملن الفاكهة ، مقعيات على الارض ، وفى أيديهن السلال بصورة لطيفة ، وأتردد فى النزول لانى لست متأكدا من أن الوقت يسمح بذلك .. بيد أن القطار لا يتحرك ، وأجدنى فجأة فى ديوان آخر بالقطـــار وقد تقاربت المقاعد جدا بحيث يلتصق ظهرى بنهاية العربة ، ويدهشنى هذا .. وأحس كأنى ذهبت الى عربة أخرى أجد فيها أشخاصا كثيرين ، منهم أخ وأخت انجليزيان ، وعلى الرف كتب يراها الناظر بوضوح ، ومن بينهـا « ثروة الامم والمـادة والحركة » لكلارك مكسويل ، وهو كتاب ضخم غلافه من قماش بنى اللون ، ويسأل الانجليزى أخته : هل نسيت كتاب شيلر ؟ وأشعر أن الكتب التى امامى هى تارة كتبهما ، وتارة كتبى أنا ، وأجد دافعا للتدخل فى حديثهما لأؤكد شيئا .. ولكنى أستيقظ عندئذ وقد تصببت عرقا ،

وادرك أن النوافذ كلها كانت مغلقة ، وأن القطار واقف فى محطة « ماربورج »

واخذت أدون الحلم على الفور ، وعندئذ تذكرت فقرة كنت قد غفلت عنها ، وهى :

ـ قلت بالانجليزية للاخوين الانجليزيين ، وأنا أشير الى أحد الكتب : انه من ... ثم صححت التعبير قائلا: انه بقلم ... فقال الرجل لاخته : ها هو قالها من غير أن يخطىء ..

وواضح ان الذى أطلق اشارة الابتداء فى الحلم هو ما سمعته ، وأنا نائم ، من نداء الموظفين باسم المحطة .. فتسبب النداء فى تنبيهى بعض الشىء ، فلم أتبين اسم « ماربورج » وظننته « هولتورن »

وقد اقترن سفرى فى تلك الليلة بظروف مزعجة ومتعبة ، مع أننى كنت أركب فى الدرجة الاولى .. بيد أن القطار كان مزدحما جدا ، وشاركنى فى مقصورتى رجل وزوجته كانا على درجة بالغة من سوء الادب ، ولعلهما تعمدا أن يظهرا لى تذمرهما لدخولى المقصورة ومشاركتى اياهما فيها ، بحيث أنى ألقيت عليهما التحية فتجاهلانى وتجاهلا تحيتى ..

ومع أن هذين الزوجين كانا يحتلان المقعد الذى الى جهة القاطرة ، فقد سارعت السيدة باحتلال المكان الذى يواجهها بجوار النافذة فوضعت فيه مظلتها ، وقام السيد باغلاق الباب ، وتبادلا تعليقات فظة حول مقتضيات فتح النوافذ واغلاقها ، ولا بد أنهما فطنا الى تشوقى فى تلك الليلة الحارة الى نسمة من الهواء الطلق ، فأبديا تمسكهما باحكام اغلاق النوافذ والباب .. ولم تلبث المقصورة بطبيعة الحال أن استحالت الى ضاحية من ضواحى جهنم !

وكنت قد عرفت من خبرتى فى الاسـفار أن أولئك المتفطرسين قليلى الحياء يكونون فى الغالب من غير الركاب الاصليين للدرجة الاولى ، وانما هم ممن يحصـلون بالمحسوبية على ترخيصات سفر مجانية أو على تصريح للسفر بنصف الاجرة أو ربعها !

وكانت المرأة ذات وجه عجوز مجعد وملامح صارمة ، فى سن تقارب سن اليأس .. وأما الرجل فكان عتلا صموتا ، ظل جامد الملامح لم يفتح فمه بكلمة واحدة ..

وبعد قليل ، صدق ظنى حين جاء ملاحظ التذاكر .. فابرزت له تذكرتى التى دفعت فيها مبلغا طائلا ، وعندئذ قالت المرأة للملاحظ بلهجة آمرة متعالية :

ـ زوجى معه تصريح مجانى بالسفر ..

وبعد انصراف ملاحظ التذاكر ، حاولت أن أستريح من صحبتهما بالنوم .. وبدأت أنتقم فى نومى من رفيقى السوء هذين

وما من شك أن الجزء الاول من الحلم حفل بأنواع من القذف والسب والاحتقار .. ولـكن هـذه الاجزاء من الحلم تطايرت عند اليقظة لانهـا أدت مهمتهـا وانقضت الحاجة اليها ..

أما الجزء الثانى من الحلم ، فكان تحقيق رغبة فى مغادرة هذه المقصورة .. وقام الحلم ايضا بتلبية رغبتى ، فأوجد لى رفيقين شابين أرق من هذين حاشية ..

ولـكن العجيب حقا اننى وانا فى الحلم دهشت لتغير المقصورة ، وحاولت وانا فى الحلم أيضا أن اعلل هـذا التغيير المعتاد فى الاحلام بأننى لابد قد تركت المقصـورة او غيرت العربة وأنا نائم

***

ولا اعتقد انه من المنتج اضافة نماذج أخرى من تلك

الاحلام ، فلن يؤدي ذلك الا الى تحصيل ما هو حاصل فعلا ..

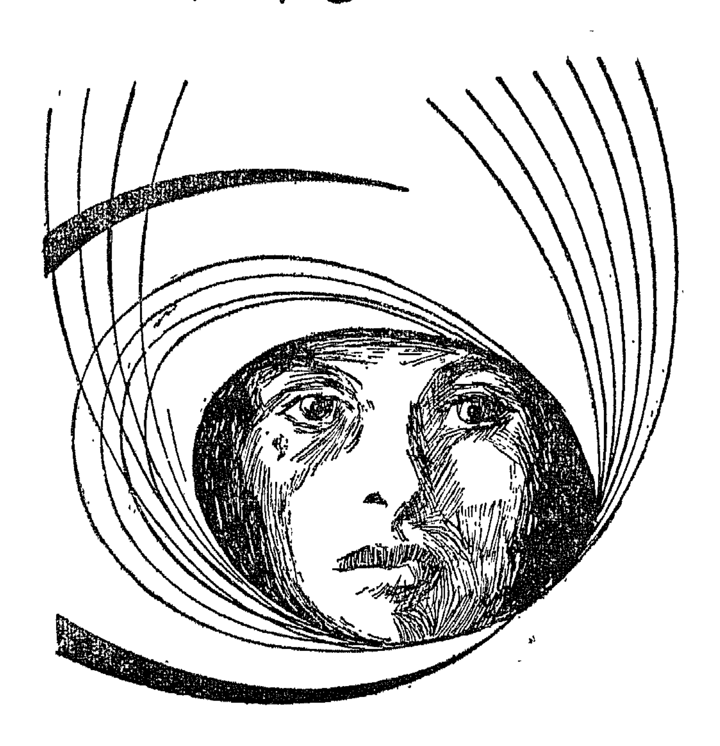
ان الاحلام الســـــابقة تكفى للقول بأن الاحكام التى نصدرها اثناء أحلامنا ان هى الا صدى مكمل لجزء من اجزاء الحلم ، وقد يكون هذا الصدى غير ملائم ، ولـكنه قد يكون كما فى المثال الاخير دالا على ذكاء وفطنة حتى ليصلح ثمرة لنشاط عقلى يقظ مستمر أثناء الحلم

وقد آن الاوان الآن للاهتمام بالحالة الانفعالية للحالم والمظهر الذى تبدو به فى الحلم



الفصل السادس

الحالات الانفعالية فى الحلم ● حالات انفعالية أخرى
لماذا ننسى أحلامنا ؟



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحالة الانفعالية فى الحلم

ان الحـالة الوجدانية التى تقترن بالحلم لا يمكن ان يستهان بها حتى عند الذين يستهينون بمعنى الحلم نفسه

واصدق تعبير عن ذلك ما قاله « شتريكر » :

ـ قد تشعر بالخوف الشـــديد حين تحلم بهجوم اللصوص عليك .. واللصوص وهم ما فى ذلك شـك ، ولـكن خوفك منهم ليس وهما وانما هو خوف حقيقى ما فى ذلك شك !

وما يقال عن الخوف فى الحلم ، يقال كذلك عن السرور .. فما يقترن بالحلم من حالة انفعالية لا يختلف فى شىء اطلاقا عن أحوالنا الانفعالية ونحن فى اليقظة ..

وعلى هذا الاساس يمكن القول أن مضمون الحلم جدير ان يحتل مكانه بين الحقائق الواقعة بعنصره الوجدانى كما هو ، أما عنصره الفكرى فموضع خـلاف ، وقصـارى دعوانا انه يحتاج الى تأويل وتفسـير على ضـوء منهج التحليل ..

ولـكن الملاحظ أننا فى حال اليقظة نربط بين حالتنا الانفعالية وبين المضمون العقلى للاشياء ، ولذلك عندما نستيقظ من حلم مروع ، ونتأكد من عدم وجـود المبرر الفكرى للارتياع فى عالم الواقع يفرخ فى روعنا على الفور

ومن العجيب فى أمر الاحلام أيضا أن المدلول الفكرى فى الحلم لا يقترن حتما لزاما بالاثر الوجدانى المعهود فى

اليقظة ، فقد نرى فى الحلم عزيزا علينا يصاب بمكروه ، ولا نشعر فى الحلم لذلك باى صدى من الاكتراث ، وقد نأتى فى الحلم عملا لا يكاد أن يعلق به غبار ، بيد اننا نشعر فى الحلم بحرج شديد وخزى ، ونتمنى لو أن الارض انشقت فوارتنا عن العيون

ولهذا حق لبعض العلماء أن يقرر أن الاحداث تنفصل فى الحلم عن أثرها الانفعالى .. فقد يحدث الانفعال الشديد من غير مبرره ، وقد يحدث المبرر القوى ولايقع الانفعال الشديد !

وهذا الانفصال بين المضمون الفكرى والمضمون الانفعالى هو الذى حدا بنا الى القول ــ فيما سلف ــ أن المضمون الفكرى يتعرض لعمليات الابدال والالتواء والتعمية بحيث يدل الشيء على ضده ، فى حين يبقى المضمون الانفعالى من غير تبديل

ما أشبه هذا بدور التخفى والتنكر عن أعين العسس والرقيب ، ففى هذه الحالة تتجه العناية كلها الى تغيير الشكل والمظهر .. فقد يرتدى الرجل زى امرأة ليفلت من الرقيب ، ولكنه لا يكون بحاجة الى تغيير ما بقلبه من عواطف أو مطامع أو مخاوف لا يمكن أن تنفذ اليها عين ذلك الرقيب على كل حال !

كل هذا يحدونا الى عدم التعجب من التفاوت بين المضمون الفكرى والمضمون الانفعالى للحلم الواحد .. بل اننا نعتبر بقاء المضمون الانفعالى بعيدا عن التبديل والتشويه بمثابة نعمة كبرى ، لانها نقطة الانطلاق نحو الكشف عن المغزى الخفى وراء المضمون الفكرى للحلم

اننى حين أرى فى الحلم عزيزا أصيب بمكروه ، ولا أشعر فى الحلم لذلك بلذع أو أسى ، استنتج على الفور أن ذلك العزيز المصاب لا يمثل شخصه ، انما هو ستار

لشخص آخر أو شيء آخر ينبغي أن أكشف عنه بالتحليل

وكذلك الحال حين يحدث العكس .. فاذا لم يقع مني في الحلم ما يستوجب الخزي أو الندم ، بيد أني أشعر بخزي شديد أو ندم لاذع .. فمعنى هذا أن ما أتيته في الحلم من عمل يبدو بريئا انما هو قناع زائف للتمويه على الرقيب الشعوري ، وينبغي أن أبحث عما تحت هذا الستار التنكري من رغبة لاشعورية ، أو ذكرى قديمة مكبوتة هي الجديرة باثارة خجلي أو ندمي

ولعل من المناسب أن أذكر هنا مثلا طريفا ، هو أول حلم استطعت أن أستدرج حفيدي حين كان في الشهر العشرين من عمره كي يقصه علي .. وهو حلم حقق له رغبة ، ولكن الحالة الانفعالية التي كانت حرية بتحقيق هذه الرغبة في اليقظة لازمته في الحلم من غير أن يكون في ظاهر الحلم ما يبررها ..

ففي الليلة السابقة على سفر والده الى ساحة القتال ، استيقظ حفيدي وهو ينتحب بشدة ويصيح :

ــ بابا .. بابا .. مع بيبي

ومعناه طبعا بلغة الطفل أن بابا وبيبي (وهو الاسم الذي يطلق على الطفل في الاسرة) سيبقيان معا ، مع أن البكاء يدل على أنه مسلم بقرب سفر أبيه الى بعيد ..

ونلاحظ أنه كان يعرف منذ شهور كلمة « بعيد » .. فهو يلقي من النوافذ بكل ما تصل اليه يده ، ثم يأتينا فرحا وهو يهتف :

ــ بعيد .. بعيد ..

***

ان الرقابة تؤثر على صور الحلم الظاهرة ، ولكنها أقل ما يكون تأثيرا على الحالة الانفعالية .. فالحالة الانفعالية اذن هي التي يمكن أن نسترشد بها في معرفة

الحقائق التى أفسدها التشويه والتعميه على الرقابة ..

والحقيقة أن الامراض العصبية لها تأثير كبير فى تقدم هذه الدراسة ، لاننا نجد المصاب بالهستيريا مثــــلا يضطرب اضطرابا شديدا أو يرتاع بسبب تفاهات لاتبرر كل هذا الانفعال العنيف ، والنائم الحالم قد يشعر بمثل ذلك التفاوت الضخم بين المؤثر والاستجابة ..

ان السبب الحقيقى فى الحالتين ، هو أن المؤثر الظاهرى التافه يخفى وراءه السبب الحقيقى فى الهياج الانفعالى ، وهو سبب فى الحالتين مكبوت فى اللاشعور ، لا يستطيع أن يسفر عن وجهه الحقيقى فى دائرة الشعور

وتأسيسا على هـــــذا ، ندرك أن الحالة الانفعالية والمضمون الخفى لايكونان فى الحلم وفى الهستيريا الا شيئا واحدا متكاملا ، ومن الحالة الانفعالية ، نستطيع أن نصل بالتحليل الى المضمون الحقيقى المستتر ..

وسأستخدم أحلاما نموذجية لتوضيح هذه الفكرة..

***

وأبدأ بحلم احدى مريضاتى :

ـ رأت ثلاثة سباع فى صحراء ، وكان أســد منهــا يضحك لها .. ولم تشعر بالخوف ، ثم اذا بها بعــد لحظة تجرى هاربة ، وتريد أن تتسلق احدى الاشجار .. ولـكنها تجد أن قريبة لها تشتغل معلمة للغة الفرنسية قد تسلقتها قبلها ..

وبالبحث عن المناسبة المباشرة لهذا الحلم فى أحــداث اليوم السابق ، اتضح أنها كتبت فى موضــوع انشــاء باللغة الانجليزية « أن اللبد يزين الاسد » وعرفنا أيضــا أن اباها ملتح ، وأن لحيته الـكثة أشبه بلبد الاسد ، وأن معلمة اللغة الانجليزية لها اسم مشتق من الاسد فى ظاهر

النطق ، وأن صديقة لها أهدتها أشعارا لاديب المانى اسمه من مشتقات اسم الاسد أيضا .. فمن الراجح أن تكون هذه هي الاسود الثلاثة التى رأتها فى منامها ، فاذا كانت هذه حقيقتها فمن الطبيعى اذن ألا تشعر بالخوف منها

وبالتحليل أيضا تعقبنا خواطرها وذكرياتها ، فعلمنا انها كانت قد قرأت منذ مدة وجيزة رواية تاريخية عن العبيد فى عهد روما ، وكيف أن أحدهم تمرد وحاول الهرب فأطلقوا فى أعقابه كلاب الصيد الضارية ، فلم ينقذه منها الا تسلق أول شجرة وجدها فى طريقه .. !

وتذكرت الحالة أيضا قصة فكاهية عن التملق والمحسوبية ، فقد سئل موظف لماذا لا يتقرب الى رؤسائه كى يحظى بالترقية ، فأجاب قائلا :

ــ وما حيلتى ؟ ان الباب الخلفى هو الذى يوصل الى الرؤساء .. وقد حاولت ذلك مرة ، ولكنى وجدت رئيسى المباشر قد سبقنى الى هناك !

***

وأما المثال الثانى ، ففيه عود الى تلك الشابة التى ذكرت فى فصل سابق أنها حلمت بوحيد أختها مسجى فى نعشه ، ولم تشعر بحزن عليه .. فقد دلنا التحليل على ان ذلك الموت انما كان ستارا غير حقيقى يخفى رغبتها فى أن ترى حبيبها الذى انقطعت بينها وبينه الاسباب ، وكان من المحتم أن تشعر فى الحلم بحالة انفعالية تتفق والحقيقة الكامنة ، ولا شأن لها بالمظهر التنكرى الذى لا علاقة له اطلاقا بالموقف الانفعالى ، ولذا لم تشعر بالحزن اطلاقا

***

وهناك حالات يبدو فيها انفصال الحالة الوجدانية

عن المضمون الخفي للحلم أكثر تعقيدا ، ونجد عمليات الابدال على أشدها ، وسأسوق حلما من أحلامي للتدليل على ذلك :

ــ رأيت في المنام شاطيء البحر أمامي وعليه قلعة .. ثم اتبين أن القلعة ليست على شاطيء البحر بالضبط ، وانما هي مقامة على قناة صغيرة تفضي الى البحر ، وحاكم القلعة هو « ب » ، أراني واقفا معه في بهو كبير للاستقبال فيه ثلاث نوافذ أرى منها أمامي مشربيات مغطاة كتلك التي يطلق منها القناصة النار عندما تحاصر القلاع ، وكنت أعلم ــ وأنا في الحلم ــ أنني متطوع بدرجة ضابط بحري أو ما أشبه ذلك ، واننا في القلعة نتوقع هجوم بوارج الاعداء لاننا في حرب ، والحاكم « ب » على أهبة مغادرة القلعة ، وهو يزودني بالتعليمات اذا حدث الهجوم في غيابه ، وزوجة « ب » تلازم القلعة لمرضها ومعها أطفالها ، والتعليمات تقضي اذا بدأ الهجوم أن يخلى البهو الكبير في الحال ، يزفر « ب » بشدة ويوليني ظهره لينصرف ، فأتشبث به وأستفسره عن كيفية الاتصال به عند اللزوم ، فيرد ردا مبهما ويقع ميتا ، وأدرك أنني أرهقته بالأسئلة ولكنني لا أشعر بأي أسى لموته ، وأسأل نفسي هل من المحتم أن تظل أرملته هي وأولادها بالقلعة ؟ واليس من الواجب أن أخطر القيادة العليا ، واتولى قيادة القلعة باعتباري الضابط الذي يليه في الرتبة ، ووقفت أمام احدى النوافذ أراقب مرور السفن التجارية السريعة ، وهي تمخر عباب الماء بمداخنها الطويلة أحيانا ، وبالسطوح مائلة مثل المخازن والمحطات أحيانا أخرى ، ويظهر أخي بجانبي ، وينظر معي الى القناة .. يفزعنا ظهور سفينة معينة ونصيح معا في صوت واحد : ها هي البارجة ! .. ثم نتبين أنها مثل باقي السفن العائدة ،

وتقترب بعد ذلك سفينة صغيرة شكلها مضحك وعلى ظهرها أشياء تشبه الفناجين والعلب ، فأهتف أنا وأخى فى صوت واحد أيضا : ها هى سفينة الافطار ..

ولا شك فى أن مناظر الماء والمداخن والسفن السريعة انما هى صور منقولة عن ذكريات أسفارى الشخصية فى بحر الأدرياتيك ، وكان الكثير من هذه الصور واضحا جدا فى ذهنى لانى قمت قبل الحلم بأسابيع قليلة باحدى تلك الرحلات فى صحبة شقيقى ..

وفى الفترة التى حدث فيها الحلم كانت هناك مناوشات بحرية بين الولايات المتحدة واسبانيا ، أثارت قلق الاسرة على بعض أقاربنا المقيمين فى امريكا ..

وأما الحالات الانفعالية فى الحلم فأمرها أكثر تعقيدا ، فقد تخلفت حالة انفعالية معينة عن الظهور .. وكان المفروض أن تظهر عند وفاة حاكم القلعة ، أما عندما توهمت ظهور سفينة حربية فقد حدث الفزع ..

ويبدو لأول وهلة أن وفاة الحاكم لا تستدعى حزنا شديدا ، كما أن ظهور السفينة يستدعى الاضطراب والقلق ، ولكن المحير فى المسألة أن الحاكم فى الحلم لم يكن شخصا آخر سواى أنا !

ان حاكم القلعة فى هذا الحلم هو بديلى أنا ، لاننى كنت قلقا فى تلك الفترة على ما ستصير اليه أرملتى وأطفالى اذا مت فى سن مبكرة ، وهى فكرة ليست جديرة بأن تحزننى ، وانما هى جديرة بأن تقلقنى وتفزعنى ، ولكن الحلم فصل انفعال الفزع من لحظة الموت الى لحظة ظهور البارجة المزعومة ..

وأما منظر ظهور السفينة الحربية ، فمصدره مصدر حقيقى لم يكن مقترنا بالفزع .. بل على العكس كان مقترنا بالسرور ، فقبل هذا الحلم بسنة تقريبا ، كنت

مع زوجتى وأولادى فى رحلة بمدينة البندقية ، وكان اليوم صافيا بديعا .. ووقفنـــا فى الشرفة المطلة على القناة المؤدية الى البحيرة الـكبيرة ، وكان نشاط الناس فى هذا اليوم أكثر من المعتاد لانه كان من المقرر أن تزور مدينة البندقية بعض البوارج الانجليزية ..

وفجأة هتفت زوجتى فى جذل الأطفال :

ــ ها هى البارجة الانجليزية ! ..

ولـكن الحلم نقل الى هذا المنظر البهيج حالة الفزع.. وهو دليل على ان الحلم يقوم بعمليات ابدال شـديدة ، يفصل فيها الحالات الوجدانية عن المواقف الظاهرية ..

أما موضوع ما سميته فى الحلم سفينة الافطار ، فانى عندما اتمعن فى هذا الجزء اتذكر أن لون هـذه السفينة المضحكة كان أسود قاتما ، وأن شكلها المضحك يشـبه الصوانى الاثرية السوداء اللون التى رأيتها فى رحلاتى ، وكنا نحسبها تحمل فناجين للقهوة أو للشاى ، لشـدة شبه هذه الاشياء بأدوات الافطار فى عصرنا الحـديث ، ولـكن الدليل أخبرنا أنها أدوات للزينـــة التى كانت تستخدم فى ذلك العهد السحيق

وعلى هذا الاساس ، تكون السفينة السـوداء التى ظهرت بهذا الشكل هى أدوات زينة سـوداء اللون ، أو بعبارة أخرى الزينة التى تستخدم فى الحداد ــ أو الحداد عموما ــ وهذا أيضا مرتبط بفكرة الموت ..

ومن جهة أخرى ترمز هـــذه السفينة السوداء الى السفن الجنائزية التى توجد فى الأساطير لحمل الجثث الى وادى العدم .. ولـكن هذا أيضا له مصدر من الواقع ، ففى بعض رحلاتنا لم يعجبنا الطعـــام الذى يقدم على السفينة ، فاشترينا من البر اطعمـــة وأنبذة وتمتعنـــا

بافطار ممتاز على ظهر المركب شهدنا أننا قلما تمتعنا بمثله .

***

وأستميح القارىء فى أن أذكر نموذجا آخر من احلامى لابد أن يملأ ظاهره التصويرى نفس القارىء بالاشمئزاز الشديد ، ولولا أن هذا الحلم ثمين جدا من حيث اقامة البرهان على التناقض الشديد بين المضمون الوجـدانى والصور الظاهرية فى الحلم لما سمحت لنفسى أن أتمسك بتسجيله هنا ، واليكم الحلم :

ـ رأيت ربوة فوقها دورة مياه فى العراء ، وهىعبارة عن مقعد مفرط فى الطول .. وفى نهايتـه فجوة كبيرة ، والحافة الخلفية منه عليها طبقات من البراز المتفـاوت الاشكال بعضه جاف وبعضه لين ، ومن خلف ذلك المقعد مجموعة أشجار . ابدأ أنا فى التبول على ذلك المقعد فاذا فيضان من البول يكتسح كل هذه الاقذار فتسقط فى الفوهة الا جانبا يسيرا منها ، ولم أشعر أثناء ذلك بأى تقزز مما أرى أو أفعل ! ..

والسؤال الهام هو لماذا لم أشعر بالتقزز ؟

ومن هذا السؤال بدأ التحليل .. واتضح أن الحقائق الـكامنة لذلك الحلم ليس فيها ـ رغم ظاهرها القبيح ـ ما يدعو الى الاشمئزاز ، بل ما يدعو الى السرور والزهو

ان هـذه الـكميات من البراز انما هى اشارة الى ما ورد فى الاسـاطير اليونانية عن ثراء « أوغياس » حتى ليقال ان مواشيه تكدست نفاياتها فى الحظائر المتراميـة بحيث عجز الناس عن تنظيفها .. ولم يقدر على ذلك سوى سليل الآلهة « هرقل » !

وفى الحلم كنت أنا « هرقل » .. أما الربوة العالية

التى فى قمتها الاشجار فهى المكان الذى كان يصطاف فيه أفراد أسرتى عند ما رأيت ذلك الحلم ، وأما المقعد الطويل فما أشبهه بقطعة أثرية نفيســة أهدتنى اياها احدى مريضاتى اعرابا عن امتنانها لجهودى .. وفى ذلك اشارة الى ما أحاط به من التقدير والتكريم نظير جهودى

بل ان دورة المياه المقامة فوق ربوة فى العراء مصدرها الواقعى تلك المراحيض العامة التى يقيمهـا الايطاليون بهذا الشكل فى ضواحى بلادهم الصغيرة ، وكنت أحتفظ لايطاليا دائما بأحسن الذكرى وأتوق لزيارتها فى كل وقت ..

وأما الطوفان الجبار من البول الذى يكتسح كل شىء ، فهو تعبير عن منتهى العظمة والقوة .. فبهذه الوسيلة أطفأ « جاليفر » حريقا هائلا شب فى بلاد الاقزام ، بل ان « جارجنتوا » العملاق الخرافى قد انتقم من أهل باريس فى رواية « ربليه » العظيم بأن صعد فوق كاتدرائيـة النوتردام وأطلق خرطوما من البول على المدينة وأهلها

واذكر بهذه المناسبة أننى عشية الحلم بالذات كنت القيت بعد ظهره محاضرة لى عن علاقة « الهســتيريا » الى هذا أننى كلما ذهبت الى باريس كنت أتحين الفرص لزيارة كاتدرائية نوتردام وقضاء ســـاعة بين تماثيلها العجيبة

واليوم السابق لهذا الحلم كان يوما حارا جدا .. وقد القيت بعد ظهره محاضرة لى عن علاقة « الهســتيريا » بالاضطرابات الجنسية ، ولم أكن راضيا على الاطلاق عما قلته ، لانى كنت فى حالة اعياء بحيث خيل الى أن كلامى كله فى تلك المحاضرة كان متداعيا خاليا من القيمة ، وتمنيت لو استطعت التخلص من التنقيب فى مصـائب الناس ومتاعبهم ونقائصهم كى أقيم مع أطفـــالى فى

مصيفهم الجميل برهة أخف بعدها الى ربوع ايطاليا الساحرة

خرجت وانا بهذا المزاج المنقبض من محاضرتى ، وتوجهت الى مقهى أتناول فيه ما تيسر من الطعام ... والواقع أن مزاجى لم يسمح لى بالاقبال على وجبتى بشهية

ورآنى فى ذلك المقهى أحد من حضروا المحاضرة ، فأقبل فى حماسة ــ وعلى استحياء ــ واستأذننى أن يجلس الى مائدتى وأنا أشرب القهوة ، ثم أخذ يصب على الثناء الشديد ، ويؤكد لى اننى اكتسحت ما كان فى عقله من رواسب الماضى المتعفنة ، واننى من أعظم الرجال فى العالم .. فهو بفضلى ينظر الى الامور بنظرة جديدة تماما ..

وليس أدل على سوء مزاجى فى تلك الليلة من أن ذلك الثناء ــ المستطاب عادة ــ أثار عندى الضيق والتقزز ، وسرعان ما تخلصت من هذا الشخص وذهبت فورا الى منزلى ، وسليت نفسى بتصفح تلك الصفحة المصورة من كتاب « ريليه » الخالد ..

ومن هنا نفذت الى الحلم أفكار ، الغرض منها تحقيق رغبة العزاء لي عن الشعور بالفشل والخيبة فى محاضرتى بتقديم صور أسطورية ترضي « بارانويا » العظمة المسرفة بأكثر من وسيلة .. وامعانا فى هذا التعويض ، حدث ابدال قوى ، فشعرت بالزهو وسط كل المظاهر التى تدعو الى التقزز

***

وأروى نموذجا آخر رواه بعض المؤلفين عن زوجة أيقظت ــ وهى منزعجة ــ زوجها المسن لانه كان وهو نائم

يقهقه قهقهة عالية ، وروى الرجل الحلم التالى :

ـ رأيتنى راقدا فى فراشى ، والى جوارى زوجتى ، عندما دخل رجل أعرفه ، وحاولت أن أوقد النور ، ولكن الزر استعصى على ، وأعدت المحاولة بغير طائل فقامت زوجتى وحاولت ولكن بدون فائدة أيضا .. وأخيرا عادت مسرعة الى الفراش لخجلها من ثيابها غير اللائمة أمام الضيف ، وقد جعلنى هذا كله أضحك ضحكا عاليا ، وأخذت زوجتى فى الحلم تسألنى لماذا أضحك فلا يزيدنى سؤالها الا مزيدا فى الضحك الى أن أيقظتنى .. وفى النهار التالى كنت أشعر بانقباض والم فى الرأس مما جعلنى أرجح أن هذا الضحك الكثير قد أرهقنى

والواقع أن مضمون الحلم ليس فيه ما يبهج القلب ، فالرجل المعروف الذى دخل الحجرة هو رمز الموت ، وكان الحالم المصاب بتصلب الشرايين قد فكر كثيرا فى اليوم السابق فى أمر الموت ، وقام الحلم بقلب الانفعال من الحزن والغم الى القهقهة ، وأما النور الذىعجز عن ايقاده فهو شعلة الحياة

والمحاولات الفاشلة تعبير عما حاوله ذلك الحالم قبل النوم من مضاجعة زوجته ، فباءت محاولته بالفشل رغم أنها حاولت أن تساعده فى ذلك الأمر وهى نصف عارية مما جعله قبل أن ينام مباشرة يحس أن شمس حياته قد جنحت للمغيب .. فجاء الحلم وقلب هذا الاحساس بالاسى والنكد الى الجانب المضحك

حالات انفعالية أخرى

ومن الاحلام ما يستحق أن يفرد له باب تحت عنوان احلام النفاق ، وكان أول ما لفت نظرى الى هذا النوع من الاحلام ، هو حلم أتت به الزميلة الدكتورة « هيلفر دينج » كى ندرسه فى جمعيتنا العلمية للتحليل النفسى ، وصاحب الحلم مؤلف نمسوى أورد حلمه ذاك فى قصة له :

ـ ان نومى فى الغالب عميق ، ولكنه فى كثير من الاحيان غير مريح ! .. لان أشباح متاعبى قبل أن أضع قلمى على سلم الادب ظلت تلاحقنى سنوات طويلة ، ولست أعنى بهذا اننى كنت أقضى ساعات النهار مفكرا فى ذلك الماضى ، والاحلام التى كنت أراها فى الليل لم تكن لتشغل بالى كثيرا .. ولكنى بعد أن دخلت فى زمرة أهل الثقافة صرت أراجع كل شىء وأعمل فيه الفكر ، وصرت أضيق أنا المطلع الطموح بحرفتى حينذاك وهى صانع فى دكان خياط ثياب .. فأتحسر على وضعى هذا وعلى ما يضيع سدى من وقتى ، وكم حدثتنى نفسى أن أهجر هذه الحرفة الحقيرة ، وأمضى فى طلب عظائم الامور ، وكنت فى الليل أحلم أيضا بأنى أحاول التخلص من وضعى المذل ، بل وكنت أحيانا أفلح فى ذلك ... الا أن صاحب الورشة كان لا يهتم لما أصنع ويتجاهل تصرفاتى فأجدنى من جديد الزم جواره وأعكف على الحياكة والكى .. حتى اذا استيقظت شعرت بالراحة

من جو ذلك الحلم الثقيل ، وأصمم اذا تراءى لى حلم من هذا النوع ألا أدع نفسى أشعر بالـكرب ، وأن أتذكر أن الحلم وهم وأننى مستريح بين أغطية فراشى ، ولكن ما أن يأتى اليوم التالى حتى يعاودنى الحلم ، وأجـد نفسى مرة أخرى مكروبا بالعمل فى محل الخياط ، وقد استمر هذا الحلم يعاودنى سنين طويلة وبمثابرة مدهشة .. ثم حلمت اننى مع معلمى فى بيت فلاح معين ذهبنـا اليه منذ سنوات فى أول التحاقى بالمهنـة ، ورأيت فى الحلم أيضا أن المعلم متأفف من طريقتى فى الحياكة أكثر من العادة ، حتى أنه سألنى متهكما أين دماغى ونظر الى نظرة شذراء .. فخطر لى أن أنسب ما افعله هو أن اقف واصارحه أننى سوف لا أبقى معه ما دام غير راض عنى ، ثم أتركه وأنصرف .. بيد أننى لم أفعل شيئا من هذا القبيل ، والادهى من ذلك أن المعلم نادى صـانعا آخر وأمرنى ان أتخلى له عن مقعدى .. فانصعت مذعنـا وذهبت الى الركن فانكمشت فيه وانصرفت الى مواصلة الحياكة ، وبعد قليل ألحق معلمى بالعمل صانعا جديدا ذا وجه تنكرى ، وهو بعينه ذلك الغجرى الذى ألحقـه بخدمته قبل ١٩ سنة وسقط فى النهر وهو عائد ، ووقف الصانع الجديد ينظر فى المكان مفتشا عن موضـع له ، ونظرت أنا من الركن الى المعلم مستفسرا ، فقال لى :

ـ أنت لا تصلح لمهنة الحياكة ، وفى وسعك أن ترحل .. انت مطرود ! .. فاستولى على ذعر شديد كان كافيا لايقاظى من نومى .. ووجدت ضوء المصباح ينفذ من الستائر الى حجرتى المعهودة ومن حولى تحفى الفنية ، فهـا هى دواليب كتبى الزاخرة بأعمال هوميروس ، ودانتى ، وشـكسبير ، وجوته ... وكلهم من أعاظم الخالدين ، ومن الحجرة الاخرى تصل الى سمعى أصوات

ندية على القلب ، هى أصوات أطفالى يلهون مع والدتهم يعابثونها وتعابثهم ، وكل شيء يشير الى أنه لم تعد لحياتى الحاضرة صلة بتلك السنوات المكدودة ، سنوات عملى فى دكان الخياط ، ومع ذلك شعرت بالغيظ لاننى لم أكن أنا الذى استقلت من تلقاء نفسي فى الحلم ، بل تراخيت وتركت الفرصة لذلك المعلم الفظ كى يطردنى شر طردة .. ولكن الاعجب من ذلك أننى بعد تلك الليلة المزعجة التى حلمت فيها أن الخياط طردنى من خدمته شعرت بالراحة ، فلم يعاودنى الحلم بأيام حرفتى القديمة .. تلك الايام التى أبادر هنا احقاقا للحق ،فأقول انها كانت رخية خالية من المسئوليات .. بيد أنها ظلت تطاردنى فى المرحلة التالية من حياتى ، وتنشر الاضطراب والكدر فى منامى

ووجه الصعوبة فى هذا الحلم انك لا تستطيع أن تحدد بسهولة موضع الرغبة التى تحققها تلك الصور «الحلمية» المتكررة وهى تلاحق أديبا ناجحا بدأ حياته صانعا صغيرا فى محل خياط ، فان مجده متحقق فعلا فى حاضره الواقعي .. فكيف نسمى هذا الكرب الذى يطارده فى المنام تحقيق رغبة ؟

ولكنى استطعت بالرجوع الى تجربتى الشخصية أن أتبين سر هذا النوع من الاحلام ، لانى رأيت أحلاما من هذا القبيل .. فقد سبق لى أن عملت فترة طويلة فى بداية اشتغالى بالطب فى معمل كيماوى ، فلم أظهر اى تفوق وظللت خاملا ضئيل القدر ، الى أن تركت ذلك العمل العقيم ، ولذا أتجنب التفكير ، وأنا يقظان ، فى تلك المرحلة من عمرى التى لا تليق بحياتى العلمية ، ولكننى كثيرا ما كنت أحلم أنى أشتغل فى ذلك المعمل وأقوم بالتحليلات بطريقة غير مرضية ، وأشعر بالمضاضة ،

واقوم من النوم وأنا متأفف فقيد الصبر ..

وبعد تفكير فى الامر ، لفت نظرى أن تلك الاحـــلام تأتينى دائما بحيث أرى نفسى أقوم بتحليلات .. فكانت كلمة « تحليل » هى كلمة السر ، وكأنها تشير الى اننى اشتغل الآن أيضا بالتحليل ، وأصل فيه الى نجاح كبير ، واظهر بالتكريم والتقدير .. ولـكن التحليلات اليوم هى التحليلات النفسية ..

فكأن أحلامى تلك تأتى جوابا على ما يخامرنى من الزهو لنجاحى فى التحليل النفسى ، فتذكرنى فى منامى بتلك التحليلات التى فشلت فيها فى مقتبل عمرى .. وهكذا يكون الحلم نوعا من العقاب على الزهو وتذكير للمختال بنجاحه الطريف بأن له ماضيا لا يشرفه كثيرا ، فأولى به ثم أولى أن يتواضع قليلا .. وهـذا هو ما حـدث للاديب المشهور ، فحلمه يذكره بما كان من أمره فى صدر شبابه اذ عمل صبيا فى محل خياط ..

ولـكن المشكلة هى لماذا يسمح الحلم للنقد المؤلم أن يظهر بهذه الصورة ؟ وهل يمكن أن يسمى هذا التبكيت نوعا من تحقيق الرغبة ؟ ..

كى نفهم مثل هذا الحلم المشكل ، علينا أن نتذكر أن نفوسنا تحتوى على نزعات « ماسوكية » وربما أدت الى مثل هذا التعذيب ، فان « الماسوكية » هى التلـــذذ بتعذيب الذات ، ولذلك قد يفرد البعض لهذا النوع من الاحلام عنوانا يختلف عن تحقيق الرغبة ، فيسمونهـا أحلام العقاب ، وان كنت أنا شخصيا لا أرى تناقضـا بين الاسمين .. لاننى اعتقد أن الشىء وضده يلتقيان بكل سهولة ويسر ، ففى عالم النفس الانسانية لا وجود لصفة مطلقة

وبهذه المناسبة أذكر أننى رأيت نفسى فى أحـد تلك الاحلام « التبكيتية » شابا سدت فى وجهه أبواب العمل، ولا أعرف كيف أحصل على الرزق .. ولـكنى فى الوقت نفسه حلمت أننى أعزب والفتيات يتمنين أن أختـار احداهن زوجة لى ، وكان من بين الفتيات زوجتى الحالية وقد ارتدت شابة ، وهذا يشى بالباعث على ذلك الحلم ، وهو الباعث الذى يخامر كل رجل انقضت فترة شبابه ، فهو يتمنى لو عاد الى صـباه وصادفته نفس المتاعب ، وليس من النادر أن يقول من فى مثل حالى وسنى :

ــ الحمد لله .. فكل شيء اليوم على خير ما يرام ، لقد انتهينا من مجابهة الصعاب والـكفاح الشاق ، ولـكن ما كان أجمل أيام ذلك الـكفاح حين كان المرء شابا

***

وليس من النادر أن يرى الانسان فى الحلم نفسه ، وقد تصافى مع من خاصمهم منذ سنوات وراجع حبل الود ، وهذا أيضا ينـدرج تحت أحلام النفاق ، ولـكنى أرى ذلك من الأمور المألوفة التى لا تثير مشكلة ، وافضل أن أعود الى الحلم الاغرب الذى رأيت فيه الشيخ « بروكيه» يكلفنى بأن أجهز للتشريح حوضى وساقى ..

وأذكر أننى فى هذا الحلم لم أشعر بالدهشة ولا الالم ولا الارتياع ، وأذكر الآن أن الحلم كان يرمز الى تحقيـق رغبة .. لانى كنت مهتما باجراء مهمة عسيرة جدا هى أن أحلل نفسى بنفسى توطئـة لنشر كتـابى هـذا ، وكان قيامى بتلك العمليـة باصرار ، يسبب لى آلاما ومضايقات كثيرة حتى اننى أرجأت أكثر من مرة نشر النسخة الاولى من كتابى هـذا بعد أن فرغت منه ..

ولـكنى كنت أقاوم عواطفى وأمضى فى عملى ، ولذا لم اشعر فى الحلم بالارتياع أو الفزع

وهذا حرى أن يسوقنا الى القول بأن الحالات الوجدانية فى الحلم ربما صدرت عن رغبة لا شعورية مكتومة أو عن دافع أخلاقى ، فان كل مصدر قادر على توليد الانفعـال فى الحياة العادية فهو صالح أيضا لتوليد الانفعال أثناء النوم ..

وأحب أن أنبه هنا الى أن تفسير الانسـان لاحـلامه ليس بالعمل الهين ، بل يحتاج الى حزم ونزاهة شديدين .. فقد يصل الانسان من تفسير حلمه الى أنه فى بعض مواقف الحلم كان منحطا أنانيا خسيس الخلق والطباع



لماذا ننسى أحلامنا ؟

هناك حلم روته لى احدى مريضاتى ، ولست أعرف بالضبط من الذى رأى هذا الحلم .. لان مريضتى سمعته من ألسنة البعض، بيد أنهذا الحلم أثار اهتمامى ، ولهذا أرى من المناسب أن أرويه فى هذا المقام :

ــ مرض ابن أحــــد الاشخاص فلزم الاب فراش وحيده لا يبرحه أياما طويلة ، الى أن مات الطفل .. وكان الاعياء قد نال من الاب ، فأحضر رجلا مسنا كى يسهر بجوار الجثمان ــ كمــا هى التقاليــد ــ بعد أن أضيئت من حوله الشموع ، وتعهد الرجل المسن أن يظل ساهرا طوال الليل يردد الادعية ، وانتقل الاب الىحجرته التى يصل بينها وبين حجرة المتوفى باب مفتوح ، ورقد على فراشه التماسا لشىء من الراحة ، وفى وسـعه اذا فتح عينيه أن يرى ما يجرى فى الحجرة الاخرى ، وغلب النعاس الاب ، فنام قليلا ورأى فى منامــه ابنه المتوفى واقفا أمامه يهز ذراعه ويقول له :

ــ الا ترى يا أبى أنى أحترق ؟.. واسـتيقظ الاب مذعورا ، فوجد النار منـدلعة فى الحجرة الاخرى ... فأسرع الى هناك ليجد الرجل المسن قد غلبـه النوم ، وامتدت النار من احدى الشـموع فاندلعت فى غطـاء الفراش ، واشتعلت فى أحد ذراعى الجثة

وفى اعتقادى أن النار التى اندلعت قد نفذت بوهجها

الى شبكية عين الاب وهو نائم ، فصور له الحلم ما حدث بهذه الصورة الخيالية .. بل واعتقد أيضا أن العبارة التى نطق بها الابن فى الحلم لابد أن تكون مستمدة من احدى عبارات الطفل الحقيقية فى موقف آخر ..

ولكن لماذا صور الحلم عملية اشتعال النار بهذه الصورة بالذات ؟ ..

انها سياسة تحقيق الرغبة مرة أخرى .. فهذا الحلم يحقق أمنية للحالم ، مؤداها أن ابنه لم يزل على قيد الحياة ..

***

ولا يمكن أن يغفل فى دراسة الاحلام جانبا هاما جدا ، هو أننا ننسى القسم الاكبر من أحلامنا بمجرد اليقظة .. وحتى الاحلام التى نذكرها عند اليقظة تظل تتناقص فى الوضوح شيئا فشيئا مع تقدم ساعات النهار ..

فلماذا ننسى أحلامنا ؟ ..

ان الجزء الذى نذكره من أحلامنا هزيل ضئيل فى الغالب ، وعلى هذا الجزء دون غيره ، نصب قدرتنا على التفسير .. وليس ما يضمن لنا أن ذاكرتنا لم تخدعنا ، أو أنه مفكك كما يخيل الينا ، فما الذى يدرينا أن الحلم لم يكن أكثر تكاملا وخاليا من الثغرة ؟ .. بل ما الذى يدرينا أن العقل ، وهو يروى الحلم ، لم يحاول ملء هذه الثغرات بمعلومات جديدة لم يكن لها فى الحلم أثر ، لان العقل ينكر الفراغ ويحاول أن يجمع الشتات فى كل مؤتلف ؟ فان من المؤلفين من يعتقدون أن الحلم يرد على أذهاننا مفككا ، وأن جميع الروابط انما هى من فعل الذهن الواعى ..

كل هذه مسائل جديرة بالاعتبار الدقيق لانها تؤثر

تأثيرا بعيدا فى قيمة الموضوع الذى ندرسه ، ونستطيع اذا راجعنا كل تحليل قمنا به بحلم من الاحلام أن نجد تفاصيل صغيرة لها أهمية كبيرة فى الوصول الى المضمون الخفى للحلم ، وأنه لولا هــذه التفاصيل الصــغيرة لمـا وصلنا الى شيء اطلاقا

اننى أعتقد أن العوامل التى تتسبب فى نسيان جزء من أجزاء الحلم عند تسجيله ، فور اليقظــة ، انما هى عوامل جديرة بالدراسة النفسية ، وقد يكون لها تأثير فى الحلم ومضمونه أهم بكثير من تأثير العناصر التى لم يطرأ عليها النسيان

وقد استفدت من استغلال هذه الناحية فوائد ذات بال ، فاننى حين أجد الحلم الذى سجله مريضى ، أو أملاه على ، غامضا فى بعض المواضع اطلب من المريض أن يعيد روايته ، وسأجد أنه ينسى بعض المواضع أو لا يهتم بها ، فأعتبر هذه المواضع ذات أهمية خاصة لانها تكون أكثر تعرضا للرقابة .. وكأن الحالم يحس أن هذه المواضــع بالذات يكمن فيها خطر افتضاح سره ، فيعمـــــد الى مواراتها عن عين المحلل أو بصيرته .. فأتشبث أنا بهذه المواضع ، وأعتبرها بداية الخيط المفضى الى السر

ولا أطبق هذه القاعدة على المواضع المنسية فحسب ، بل على كل موضع أجد أن الحالم عنــد الاعادة يرويه بعبارة أكثر غموضا ، وكأنه يرمى الى الابهام والتعمية .. وعلى قدر المجهود الذى يبذل للتضليل أدرك أهمية الموطن بالنسبة للسر

وأما تخوف بعض المؤلفين من الاعتمــاد على الذاكرة فيما يختص بالاحلام ، فهو فى رأيى أمر مبالغ فيه .. فذاكرتنا اليوم على العموم ليس هناك ما يضمن صوابها سواء وهى تروى ما يحــدث فى الحلم أو ما يحــدث فى

اليقظة ، ولـكننا بفطرتنا نعتمد على الذاكرة ولا نجد فى ذلك حرجا ..

واذا كنا نرتاب أحيانا فى أن تكون رواية الذاكرة للحلم محرفة ، فهذا الارتياب بدوره مرجعه الى الدور الذى تقوم به الرقابة الشعورية بالنسبة للاحـلام .. فهذه الرقابة تمنع ما تستطيع منعه من مادة اللاشعور حتى لا يطفو الى دائرة الشعور ، وما ينفذ من رقابتها ويفلت ـ ولو متنكرا ـ تحاول الرقابة أن تحتجزه من الذاكرة ، وبهذا يكون النسيان ، أو التغيير عند التذكر ، عمليـة مشابهة لعملية التشويه نفسها

وينبنى على هذا أن الوضع الذى يطغى عليه النسيان ـ عند اعادة الرواية ـ انما يكون عنصرا وثيق الصـلة بالمضمون الخفى أو المادة الممنوعة ..

ان احدى قواعد التحليل النفسى الاساسية هى أن كل مقاومة نتيجة فكرة ممنوعة مستترة فى اللاشعــور يحاول الرقيب أن يبقيها مستترة ، وليس من الضرورى أن تكون هذه المقاومة سافرة ، بل ان كل ما من شـأنه أن يعطل التحليل أو يضلله يجب أن يعتبر نوعا من أنواع المقاومة ..

ونسيان الاحلام ـ بجميع درجاته ـ انما هو من قبيل التعطيل أو التضليل اى المقاومة ، وهذا النسيان مسألة غير مفهومة ، ما لم نربط بينه وبين الرقابة الشعورية ، ومن أقوى الدلائل على ذلك أن المثابرة على التحليـل تؤدى فى الغالب الى تذكر ما يخيل الينا أننا نسيناه من أجزاء الحلم ، وذلك عمل لا انكر أنه شاق ، ويحتاج الى مهارة ودراية وصبر ..

ولعل من المناسب أن أروى هنا حلما أوردته فى كتاب

آخر من كتبى ، فقد أمكن تفسير هذا الحلم رغم ما اكتنفه من غموض بسبب النسيان :

ـ كنت أعالج مريضة كثيرة الحذر والشكوك ، واتفق لها أن حلمت حلما طويلا لم تذكر منه الا أن شخصا ما حدثها عن كتابى فى الفكاهة وقرظه تقريظا شديدا ، ثم عرض الحلم لموضوع « قناة » .. لم تتبين بالضبط أى « قناة » هى ، ولكن يبدو أن ذكرها جاء فى كتاب آخر من كتبى تعرض له الحلم ، بيد أنها ليست متأكدة لان الموضوع كان يكتنفه الغموض ..

وكان المنتظر الا يسفر موضوع هذه « القناة » المبهمة عن أى تفسير ، لانها منقطعة الصلة ببقية أجزاء الحلم ، والحقيقة أن المهمة صعبة ، ومصدر الصعوبة أن ذهن المريضة خال من أى شىء فيما يتعلق بموضوع القنوات ، وانقضى يوم ، وفى الجلسة التالية قالت لى المريضة انها استطاعت أن تتذكر شيئا له علاقة بالقنوات ، وهو نادرة كانت قد رويت على مسمع منها ، فقد قيل أن سفينة كانت تعمل على الخط عبر القنال الانجليزى أو بحر المانش فيما بين دوفر وكاليه .. وعلى سطح هذه السفينة التقى أديب مشهور مع مسافر انجليزى ، وأثناء الحديث قال المؤلف نكتة يستفاد منها أن فرنسا رائعة وأن انجلترا سخيفة ومبتذلة ، وأن الفارق بين الروعة والابتذال مجرد قناة !

وربما خيل للبعض أن ذكر القناة فى هذا السياق لا يفيد فى التفسير ، ولكنى بالعكس أراه بداية خيط مفيد للغاية ، ومن هذه البداية ، بدأت أفتش عن المضمون الكامن لحلم تلك السيدة ..

وكثيرا ما يحدث أن نشرع فى التحليل والتفسير ، واذا

بالحالم فى منتصف الطريق يستوقفنا وقد انبثق فى ذهنه فجأة جزء من حلم كان قد نسيه فى البداية ، ويتضح فيما بعد أنه كان من صميم لباب الحلم .. ولذا انصبت عليه مقاومة أشد مما انصب على بقية الاجزاء ..

وكثيرا ما مر بى فى خبرتى ما يثبت أن نسيان الاحلام مرتبط بقوة المقاومة الشعورية ، ومثال ذلك أن يقول لى المريض :

ـ لقد رأيت بالامس حلما بيد انى نسيته تمام النسيان .. وليس فى ذهنى منه أى أثر ..

ومعنى هذا أنه فى موقف كمن لم ير ذلك الحلم اطلاقا ، فأترك موضوع الحلم وأمضى معه فى التحليل بعيدا عنه.. فأجد منه مقاومة فى بعض المواضع فأشجعه كى يتغلب على تلك المقاومة ، وما أن يفلح فى ذلك حتى يهتف :

ـ وهاأنذا أيضا قد تذكرت الآن حلمى !

ومعنى هذا أن نفس المقاومة التى أنسته الحلم هى التى عرقلت التحليل منذ قليل ، فلما قهر هذه المقاومة بالنسبة للتحليل انهارت أيضا بالنسبة للحلم ، فتذكره بوضوح

وليس من النادر أيضا أن أستمر فى جلسات التحليل مع أحد الاشخاص .. ومتى أحرزت معه شيئا من التقدم ، تذكر فجأة حلما رآه قبل أيام وكان قد نسيه فور استيقاظه تمام النسيان ..

بل كثيرا ما يحدث أن أرى حلما فى الليل ، فأستيقظ فى منتصف الليل وأنا أذكر الحلم تماما ، وأحرص على الا أنام ثانية قبل أن أفسر الحلم تفسيرا كاملا ، وأوفق الى ذلك فعلا ، ثم أنام ثانية .. واذا بى أستيقظ فى الصباح،

فأجد أننى نسيت الحلم تمام النسيـــــان ونسيت معه التفسير الذى فسرته ، ولا أذكر سوى أننى رأيت حلما ، وانني قمت بتفسير ذلك الحلم ، هذا مع ان ما بذلته من نشاط ذهنى فى التفسير ليس جزءا من المنـــام بحيث نستهين بدلالة نسيانه ، كما يؤثر بعض المؤلفين أن يفعلوا



الفصل السابع

أساليب تحقيق الرغبة • حلم نموذجي



اساليب تحقيق الرغبة

ما من شك أن نظريتنا القائلة بأن الحلم انما يرمى فى خاتمة كل مطاف الى تحقيق رغبة نظرية تقابل بصعوبات كثيرة تستحق منا أن نعالجها بامعان ..

والحلم الذى أوردناه فيما سبق عن الطفل الميت الذى اشتعلت فيه النار ، انما هو نموذج حسن لدراسة أوجه الاعتراض على نظريتنا ..

وانه لما يثير الدهشة بلا شك أن يقال فى البداية أن ذلك الحلم أيضا لا يعدو أن يكون هدفه الباطن تحقيق رغبة ، واذا رجعنا الى تعريف «ارسطو» للحلم ، وجدناه يقول على طريقته المشهورة ان الحلم هو تفكير الانسان النائم من حيث هو نائم ..

والآن لنا ان نتساءل : ان عقلنا فى فترة اليقظة يقوم بعمليات كثيرة شديدة التنوع ، منها الاستنتاج ، ومنها الاستقراء ، ومنها الاقرار ، ومنها النفى ، وغير ذلك ، فلماذا يتقلص هذا النشاط كله أثناء النوم ، ولا يبقى مجال الا لنوع واحد هو تحقيق الرغبة ؟ ..

وبماذا نفسر تلك الاحلام الكثيرة التى تصور لنا أنواعا متباينة من النشاط النفسى ، من قبيل الخوف أو القلق ؟ .. بل بماذا نفسر حلم الطفل الميت الذى شبت فيه النار ؟ .. السنا نقول ان وهج النار سطع من الباب المفتوح الى جفنى الاب النائم فتولد لديه قلق جعله

يتصور أن احدى الشموع سقطت من موضعها ، وانه لعلها قد اشتعلت فى أغطية الفراش ، وتولى الحلم اخراج موقف بذلك المعنى يتخذ الابن أداة للشكوى ؟

كيف يمكن أن نسمى هذا الموقف تحقيق رغبة ؟ .. اليس الأولى أن نسمى هذا نشاطا ذهنيا من نوع نشاط اليقظة ، وان نقول ان النشاط الذهنى اثناء النوم والحلم انما هو امتداد لأنواع ذلك النشاط التى نمارسها فى النهار ؟ ..

وذلك كله حرى أن يلزمنا بتعمق معانى تحقيق الرغبة واساليب ذلك التحقيق وصلتها بما لافكار اليقظة من آثار وذيول أثناء النوم

والاحلام على هذا الاساس نوعان : نوع يتضح منه بلا خفاء أن الغرض هو تحقيق رغبة ، والنوع الآخر يتخفى فيه تحقيق الرغبة جهد التخفى وبشتى وسائل التقنع ، وفى هذا النوع يكون تأثير الرقابة الشعوريةكبيرا

والنوع الاول له أمثلة وشواهد كثيرة من أحلام الاطفال كما ذكرنا فيما سبق ، ويمكننا أن نتساءل عن منشأ الرغبات التى يحققها الحلم ..

والرأى عندى أن هذه الرغبات لها ثلاثة مصادر :

١ - رغبة من رغبات اليقظة حالت الظروف دون اشباعها أثناء النهار ، ومعنى هذا أن « تركة » ذلك النهار التى آلت الى الليل والنوم تحتوى على رغبة صريحة تحتاج الى اشباع

٢ - رغبة من رغبات النهار رفضت أو كبتت ، وبذلك تظل فى الحساب الختامى لذلك النهار لا باعتبار أنها تحتاج الى اشباع بل باعتبار أنها لا تستحق الاشباع

٣ - رغبة لم تظهر فى النهار ، ولكنها من النوع الذى

يساورنا فى الليـــل لانها من النوع المتفق على أنه غير مشروع

فاذا كان لدينا فى « جهازنا النفسى » ثلاث طبقــات هى : الشعور أو الوعى ، ومن تحته ما قبل الشعور ، ومن تحت ما قبل الشعور اللاشعور .. فاننا نستطيع أن نحدد مواضع تلك الانواع الثلاثة ، فنجد ان النوع الاول من الرغبات يستبقى فيما قبــل الشـعور حيث نبتت ، أما النوع الثانى من تلك الرغبات ، فانها تنبت فيما قبل الشعور ولــكنها تنبذ وتنفى الى اللاشعور ، وأما النوع الثالث من تلك الرغبات فتنبت فى اللاشعور ولا تخرج عن دائرته

وقد آن لنا أن نسأل : هل لهذه الرعبات الثلاث نفس القوة فى تكوين الاحلام ؟

ويخيل الى أنه يلحق بالمصادر الثلاثة السالفة الذكر مصدر رابع هو الاحتياجات الحيوية التى تظهر أثنـــاء الليل مثل الشعور بالعطش أو الجوع أو البرد أو غير ذلك ..

وفى اعتقادى أن مصدر الرغبة ليس له شأن بقدرتها على احداث الحلم .. وللبرهنة على ذلك ، سنستعيد فى مخيلتنا الصورة العامة لنماذج الاحلام التى أوردناها فى الصفحات السابقة

ان الاطفال الذين يركبون الزورق لعبور البحيرة فى النهار ، وتطيب لهم الرحلة ، يطلبون من أمهم تكرارها ، فتأبى عليهم ذلك وتستمهلهم الى يوم آخر .. فرغبتهم لم تحقق ، ولم تكبت أو تقمع ، بل تأجلت ، ومع ذلك فمنهم من يحلم فى تلك الليلة أن رغبته تحققت على صورة نزهة طويلة فى الزورق

وهناك الرغبات التى تكبح أو تكبت أثناء النهار ، قد

أوردنا عليها من الاحلام أمثلة كثيرة .. وأضيف اليها نموذجا شديد الوضوح ، وهو أن سيدة تتمتع بموهبة اللسان السليط كانت لها صاحبة أصغر منها تزوجت.. فظلت السيدة السليطة مشغولة باشباع فضول المعارف الذين يسألونها عن خطيب صديقتها ، وعن رأيها فيه ، فتجيبهم بالثناء الخالص على شمائله وصفاته ، وتكبت رغبتها فى التعريض به صراحة لان رأيها فيه أنه نسخة من أنداده ، أو « نمرة » أو « رقم » لا يميزه عن سواه من الشبان أى مميز حاسم

فلما أوت هذه السيدة الى فراشها فى الليل ، حلمت ان الناس يعيدون عليها أسئلتهم . وانها كانت تجيبهم بالصيغة المحفوظة التى تطبع على المكاتبات التجارية والمكتبية ، وهى :

ـ يكتفى بذكر الرقم عند الرد ..

وهو الماع كاف الى حقيقة رأيها فى ذلك الشباب ، وهو الماع لم يصل الى حد التصريح لان كبت الرغبة فى النهار زج بها الى اللاشعور فلم تستطع الخروج منه الا متنكرة تحت هذا القناع كى تفلت من سلطان الرقيب الشعورى

ومن هذا ندرك أن لجميع الرغبات قوة واحدة على احداث الاحلام .. وكل ما هناك من تفاوت بينها هو فى الصراحة أو التنكر أو التشويه على حسب مدى خضوع مصدر الرغبة لسلطان الرقيب .. فما ينبع من اللاشعور يخضع للرقيب كل الخضوع ، وما لا ينبع من اللاشعور أى ينبع مما قبل الشعور لايخضع للرقيب ذلك الخضوع

ولكن لابد هنا أن نوضح نقطة دقيقة بعض الشىء ، هى الفرق بين رغبات الاطفال ورغبات البالغين .. فالطفل حين يحال بينه وبين رغبته بالتأجيل مثلا أو

الارجاء من غير قمع أو نبذ ، يحلم غالبا فى الليل بتحقيق تلك الرغبة تحقيقا فوريا ، أما الشخص البالغ فمن النادر أن يحلم بتحقيق رغبته التى حالت دونها الظروف فى فترة النهار ، لان قوة تعلق الطفل برغباته شديدة جدا ليست تدانيها شدة تعلق البالغ برغباته .. وذلك لان الطفل لا يعترف أو لايقتنع بأهمية الظروف التى تحول دون تحقيق رغباته فورا ، فيأتى الحائل من خارج تكوينه النفسى ، فليس يشغل تكوينه النفسى شيء سوى رغبته الشديدة ، أما البالغ فكلما تقدم فى النضوج كان معنى ذلك ازدياد ادراكه وفهمه واقتناعه بالظروف الخارجية ، فيكون الارجاء أو يكون الحائل دون تحقيق الرغبة نتيجة اقتناع من داخل تكوينه النفسى ، وهذا الاقتناع يحد بطبيعة الحال من شدة الرغبة ، وقد يصل فى اضعافها الى ما يشبه الالغاء من غير مقاومة تعقب صراعا ..

وأنا لا أنكر أن البعض يكبرون فى السن ، وتبقى لديهم سمات طفلية فى بعض النواحى وبخصوص بعض الرغبات فيتشبثون بأشياء معينة يرى سواهم أنها لا تستحق كل ذلك التعلق المفرط أو المطلق

ورغم هذه الفروق الفردية بين الاشخاص الكبار أو البالغين ، فانى أعتقد عموما أن الرغبة التى لم تسمح الظروف باشباعها نهارا لا تظل لدى البالغ شديدة الفاعلية بحيث تحتاج حتما الى حلم يتيح لها الاشباع فى الليل .. ولكنى فى الوقت نفسه أبادر فأعترف بأن بقايا تلك الرغبة قد تكون لها مساهمة ثانوية أو جانبية فى احداث الحلم ، فهذه الرغبة النابعة مما قبل الشعور لا تكفى وحدها لاحداث ما نسميه حلما ، بل لابد من عوامل أخرى لدى البالغين تتآزر مع الرغبة

اجل ان ما قبل الشعور ليس هو المصدر الاساسى لموضوعات الاحلام ، فذلك المصدر فى رأيى هو اللاشعور

ومعنى هذا أن الرغبات الشعورية التى استبقيت فيما قبل الشعور لا تحدث حلما الا اذا استثارت لمؤازرتها رغبة مشابهة لها كامنة فى اللاشعور ..

ومن دراستي للرغبات اللاشعورية أثناء علاج المرضى بأمراض عصبية ، أستطيع القول بأن هذا النوع من الرغبات متحفز باستمرار للخروج من دائرة اللاشعور عند أول فرصة سانحة ، وهذا التحفز يعطيها قوة اندفاع ضخمة ، وهى مستعدة أن تعير قوتها لحليفتها الرغبة الشعورية بحيث تتقنع متنكرة فى ثياب الرغبة الشعورية

فما أشبه الرغبات الشعورية بالشياطين المحبوسة فى القماقم فى أعماق البحر .. قد تظل مطمورة هناك أمدا طويلا جدا ، ولكنها لا تموت ، وعند أتفه الفرص ، نجدها نفذت الى الخارج بكل جبروت العمالقة المأثور عنها ..

وهذا يسوقنا الى تعبير آخر هو أن كل رغبة تتحقق فى الحلم انما هى فى أساسها رغبة طفلية ، وهذه الرغبة تكون فى مرحلة الطفولة صادرة عما قبل الشعور ، لان ما قبل الشعور كاف كما ذكرنا لاحداث الاحلام لديهم ، أما عند البالغين فتكون هذه الرغبات قد تحولت الى اللاشعور وطمرت فيه بحيث تستثيرها رغبات حديثة عارضة

وليس جميع الناس سواسية فى قدرتهم على ايقاف نشاطهم الفكرى أثناء اليقظة .. فمن يستطيع ذلك الايقاف هو أحسن الناس نوما ، ولعل نابليون بونابرت هو خير مثال وعاه التاريخ لاولئك الممتازين فى اجادة النوم ، ولكن سواد الناس لايوقفون اهتمامات النهار

تمام الايقاف حينما ينامون ، فتظـل الهموم والرغبات التى لم تتحقق والمشـكلات التى لم تحل مسيطرة على أذهاننا بعد النوم عن طريق ما قبل الشعور ، وكل هذه منبهات ومثيرات يمكن أن تقسمها الى الانواع الآتية :

١ ـ ما حالت الظروف العارضة دون نجاحه
٢ ـ ما عجز تفكيرنا عن ايجاد حل له
٣ ـ ما استبعدناه أو كففناه بارادتنا
٤ ـ نزعات لا شعورية آثارها ما قبل الشعور
٥ ـ خواطر تافهة رفض العقل أن يشغل نفسه بها كى يصل بها الى قرار واضح

وأى نوع من هذه الانواع المتبقية من النشاط الذهنى فى النهار قد يظل ناشطا أثناء النوم يعمل جهده كى يأخذ مداه .. ولـكنه لا يستطيع ذلك على المستوى الشعورى المألوف فى اليقظة ، فلا يكون أمامه الا المسـتوى قبـل الشعورى ، ففى هذا المستوى تتجمع الرغبـات ذات التاريخ الشعورى المـكفوف فى النهار وتستعين بالرغبات الشعورية كى تستعيد حيويتها فى احداث حلم يكفل لها ما حرمته من التحقيق!

والآن نريد أن نعرف ماذا يفعل الحلم حين تكون هذه المشاغل المتبقية من النهار ذات طابع مقلق مؤلم مما يجعل مادتها غير متفقة مع سياسة تحقيق الرغبات ..

ان الحلم فى هذه الحالة يلجأ الى احدى طريقتين :

١ ـ يغير الحلم الافكار المؤلمة والمزعجة بأن يجرد صورها من الحالة الانفعالية الطبيعية المقترنة بها ، فتأتى منـاظر الحلم وكأنها اشباع كامل للرغبة لا يحتاج الى توضيح

٢ ـ لا يتمكن الحلم من تغيير الاشكال المؤلمة لشدتها كل التغيير بحيث تبقى لها فى الحلم آثار واضحة ، وفى هذه

الحالة تنشأ صعوبة كبيرة فى التسليم بأن الحلم تحقيق رغبة ، لان المضمون المؤلم للحلم أوضح من أن ينكر ، وقد يشعر الحالم بالالم مقترنا بالصور المؤلمة الى حد الارتياع ، وفى احيان أخرى تكون الصورالمؤلمة مقترنة بشعور محايد خال من الالم أو السرور ..

والاحلام التى من النوع الاخير هى أيضا فى رأينا أحلام تحقيق رغبة .. فمن الرغبات اللاشعورية ما لايمكن اشباعه عن طريق آلام مبرحة يستعيرها اللاشعور من آثار أفكار ذلك النهار المقلقة أو الموجعة القائمة فيما قبل الشعور أو بضريبة يؤديها من الشعور بالندم أو الاستياء لتحقق رغبة ممنوعة مما يجعل نفس الحالم ميدان صراع بين قوى اللذة المحرمة وقوة الرقابة الصارمة

ومن المناسبه أن نضيف الى الاحلام التى تحقق رغبة ، نوعا آخر اعترفنا به فى الصفحة السابقة وهو أحلام العقاب ، وان كان البعض يظنون هذا النوع ناقضا لنظرية تحقيق الرغبة ، فقد يكون مضمون الرغبة المكبوتة هو انزال العقاب بنفس الحالم لشعوره باثم معين

ولكن الرقيب الذى يطالب بالعقاب مرتبط بالشعور، وهذا كفيل أن يجرنا الى القول بأن الشعور ليس معزولا فى جميع الاحوال عن تكوين الحلم .. وهو قول غير دقيق

ان التضاد بين الرقيب والشىء المكبوت ليس بالضبط هو التقابل بين الشعور واللاشعور ..

ان الافضل أن نقول ان قوة « الانية » التى تشمل الشعور واللاشعور معا هى التى تستخدم الرقيب حارسا على الاشياء المكبوتة حتى لا تخرج من معتقلها ، فيكون التقابل فى حالة أحلام العقاب بين الأنا والشىء المكبوت ، بحيث تكون رغبة العقاب رغبة صادرة عما قبل الشعور وسببها « الانية » العليا للشخص ..

حلم نموذجي

وأجد من المناسب أن أضع أمام أنظار القارىء حلما لى يتبين منه مشاغل النهار فى صور الحلم :

ــ فى بداية الحلم أخطر زوجتى أن لدى نبأ خصوصيا جدا سيدخل السرور عليها ، فتفزع وتأبى أن تصغى .. فأعود الى القول أن النبأ ســار ، واشرع فى الادلاء به ، فأبلغها أن الوحدة التي ينتمى اليها ولدنا فى الجيش بعثت بمبلغ ما ، لعله خمسة آلاف كراون .. ويتلو ذلك شيء عن نوط للجدارة .. واجــد نفسي صحبت زوجتى الى حجرة أخرى صغيرة بها أشياء مخزونة ، فنفتش هنــاك عن شيء ما ، وأرى ابنى فجأة .. فاذا به ليس فى زيه العسكرى بل فى زي رياضي ملتصق بجسمه كأنه سبع البحر ، ويصعد فوق صندوق بجوار دولاب ، كمن يريد أن يضع فوقه شيئا ، وأناديه فلا يرد ، ويخيل الى أن على وجهه أو جبينه أربطة ، ويرفع شيئا الى فمه ، وقد ظهرت فى شعره بوادر مشيب ، واتساءل وأنا فى الحلم : هل وصل به الاعياء الى هذا الحــد ؟ .. هل فى فمــه أسنان صناعية ؟ .. وأهم أن أناديه مرة أخرى ، ولكنى استيقظ قبل ذلك وأنا لا أحس فزعا أو رعبا ، وان كان قلبى يدق بسرعة .. وأنظر فى الساعة فأجدها تشير الى منتصف الثالثة صباحا ..

وقــد سبقت هــذا الحلم احساسات بالقلق فى اليوم السابق ، لان ابننا الموجود فى خط النار كان قد انقطعت

رسائله وأخباره منذ أسبوع أو أكثر ، ومن الواضح أن الحلم يتضمن اشارة الى احتمال أن يكون قد جرح أو قتل ..

وفى الجزء الاول من هذا الحلم ، نلمس اتجاها واضحا لتبديل العناصر المؤلمة بعناصر مضادة لها .. فأقول لزوجتى أن عندى أنباء سارة تتعلق بوصول مبلغ من النقود ونوط للجدارة ، بيد أن هذه المحاولات كلها باءت بالفشل .. فها هى زوجتى تشعر لاول وهلة أن أنبائى المفرحة انما هى أخبار تشفق من سماعها ، وتحاول الا تسمع ما أقول .. فكأن التنكر الذى اتخذته حقيقة النبأ كان شفافا بحيث يشى بالحقيقة المموهة ، فان وفاة الضابط المحارب هو الذى يقترن بارسال متروكاته الى أسرته ، وأما نوط الجدارة ، فيمنح عادة لمن يستشهدون فى ساحة الشرف .. وهذه كلها دلائل تفضح الواقع المكروه ! ..

ولم يستطع تحقيق الرغبة فى هذا الجزء من الحلم الا القيام بمحاولات هزيلة لابدال القلق بعكسه ، وان كنت لا أدرى بالضبط ما الذى منح أفكارى السوداء وقلقى فى النهار كل تلك القدرة على الاعراب عن نفسها أثناء النوم

وفى الجزء التالى من الحلم ، تزداد محاولات التغيير والتبديل .. فأرى ابنى فى تلك الحجرة الاخرى ، ولكنى لا أراه وهو يسقط بل أراه وهو يرتفع ، وهذا مقترن بحقيقة عن ابنى ، فقد كان بارعا فى تسلق الجبال .. ولعل هذا هو السبب فى ظهوره بملابس الرياضة ! ..

وكأننى بالحلم يحاول أن يغير الحقيقة المؤلمة ، فيصور ابنى لى فى رحلة رياضية لا فى خط النار .. ويشير الى ما أصابه من قبل فى تسلق الجبال من وقوع أدى الى كسر ساقه ، وكأن ذلك اشارة الى أن القلق فى هذه المرة

سيتمخض عن شيء هين كالمرة الاولى ..

وأما أن ابنى كان يصعد فوق صندوق ليضع شيئا على الدولاب فى حجرة الخزين الصغيرة ، فهو اشارة لا لبس فيها الى مغامرة قمت بها شخصيا وانا فى العام الثالث من عمرى تقريبا لتصل يدى الى شيء مغر فى مكان عال .. فوقعت وارتطمت بزاوية من زوايا الاثاث فوق فكى الايسر ، ولو كانت لى أسنان لسقطت من اثر الصدمة ..

ولا تخلو هذه الصورة لابنى من نوع من العقاب أو التشفى ، كأنى أوبخه على رعونته .. وتعليل ذلك بلا شك هو ما فى نفوس الكبار من حسد للشبان !

وليس معنى هذا أن الباعث على الحلم هو تحقيق رغبة الحسد أو التشفى — المكبوتة فى اللاشعور — عند كل متقدم فى السن ، بل ان رغبتى الحقيقية هى التخلص من القلق الاليم على مصير ولدى .. فاتخذ الحلم من تلك الرغبة المكبوتة فى التشفى قوة دافعة للتغطية على ذلك الشعور الاليم

***

ومن المستحسن ، على ضوء ما تقدم ، أن أوضح الدور الذى تؤديه الرغبات اللاشعورية فى احداث الاحلام .. فأنا لا أنفى أن هناك أحلاما بأسرها يكون الدافع اليها عموما أو كلية آثار متخلفة من مشاغل النهار السابق ، ولكنى أقول أنه فى الغالب لا تتوفر لمشاغل النهار السابق قوة كافية لصياغة حلم كامل ، فتستعير هذه المشاغل رغبة لا شعورية ، هى بلا شك قوية لانها لا شعورية ، فيتحالف معها لتكوين الحلم المطلوب . وذلك أشبه بشخص أمامه غاية بعيدة ، وقدماه أضعف من أن تحملاه الى هناك ، فيمتطى حمارا أو أى دابة قادرة على

مشاق السير ليصلا معا الى الموضع الذى يعجز بمفـرده عن الوصول اليه !

وبعبارة أخرى ، يمكن أن نقول ان مشاغل النهـار تقوم بدور صاحب الفكرة فى عمل ما ، ولـكنه صـاحب فكرة خالى الوفاض ، فلا بد له من شـخص غنى يمده براس المال ويكون شريكه فى ذلك المشروع ، وهذا الممول الغنى بالنسـبة للحلم ، يكون دائما رغبة مكبوتة فى اللاشعور

ولـكن من الجـائز أن يكون الممول الغنى هو فى نفس الوقت صاحب الفكرة ، وفى هذه الحالة يكون الحلم هو تحقيق رغبة لاشعورية أثارها حادث عرضى من حوادث اليوم السابق

واذا تمسكنا بتشبيه الممول الغنى الذى جعلناه رمزا للرغبة اللاشعورية ، نجد أن الحلم قـد تتحقق فيه أى صورة من صور الاستثمار المالى .. فقـد يكون الممول مساهما بجزء من رأس المال اذا كان صـاحب الفكرة الاصلى يملك الجـزء الآخر من المبلغ اللازم ، وقـد يقوم الممول الواحد بتمويل عدة مشروعات صـغيرة فى وقت واحد ، أو قد يقوم عدد من الممولين بالمساهمة فى مشروع واحد كبير ..

وعلى هذا الاساس، قد نجد فى حلم واحد تحقيقا لعدة رغبات فى صور كثيرة متفرقة أو فى صـورة واحـدة متداخلة ..

ان أحـداث اليوم السابق لها فى جميع الاحوال دور لا غنى عنه فى احداث الحلم ، وهـذا الدور ، فى كثير من الاحوال ، يكون غير كاف للقيام وحـده بتكوين الحلم .. ولـكن الحلـم لا يتكون فى الغـالب الاعم ان لم يكن ثمة ما يثيره من هذه الاحداث ..

ومعنى هذا أن جميع الاحلام ـ فيما أعتقد ـ لا بد أن تكون فيها صلة بشيء حدث فى اليوم السابق ، حتى ولو كان هذا الحدث قليـل الاهميـة جـدا .. بحيث يحار الانسان فى مبلغ لزوم هذا الشيء التافه لاحداث حلم قد يكون ضخما أو معقدا

ان الرغبة المكبوتة فى اللاشعور ـ مهما كانت قوتها ـ فى حد ذاتها عاجزة تمام العجز عن دخول دائرة الشعور أو الوعى بصفتها الذاتية ، فلا بد لهـا من التلبـس أو التحالف مع ذكرى موجودة فيما قبل الشعور تتخذها أداة للوصول الى الشـعور ، وهـذه الذكرى « قبـل الشعورية » تكون دائما بقية من مشاغل الفترة الحديثة من فترات اليقظة ..

وتلجأ الرغبة اللاشعورية المـكبوتة الى عملية أخرى من العمليات المصرفية ، هى عملية « تحويل الرصيد » ، أى أن الرغبة اللاشـعورية تحول الى الفـكرة « قبـل الشعورية » الحديثة العهد قوتها الدافعة وشدتها المكتومة

ومن يدرسـون حيـاة المرضى بأمراض عصبية وسلوكهم ، سيجدون فى عملية التحويل هذه تفسيرا طريفا جدا لعدد كبير من التصرفات الغريبة التى كانت تبـدو لاول وهلة غير مفهومة

ومما يلاحظ أن الفكرة « قبل الشعورية » التى تتحول اليها شدة الرغبة اللاشعورية قد لاتتحمـل أو تتجشم أى تغيير فى ظاهرها أو تحريف فى حقيقتها عندما تظهر فى الحلم ، ولـكنها فى أحيان أخرى قد تتعرض للتحوير كى تتناسب مع الطاقة الجديدة التى حصلت عليها من غير وجه استحقاق

وأستميح القـارىء عذرا فى أن ألجـأ الى تشبيه من حياتنا الجارية لتوضيح الموقف .. ان الرغبة اللاشعورية

أشبه بطبيب أسنان حائز على شهادة طبية أجنبية من جامعة غير معترف بها .. فهذا الطبيب لا يستطيع أن يمارس مهنته الا اذا تستر تحت اسم طبيب مرخص له رسميا بالعمل فى البلاد ..

وكلنا نعلم أن الطبيب الناجح لا يمكن أن يعير اسمه ستارا لمثل ذلك النوع من الاطباء غير القانونيين ، فعلى مثل ذلك الطبيب أن يبحث له عن طبيب قانونى فاشل أو خامل الشأن ، فيصل معه الى اتفاق معقول .. !

وبالمثل فان الرغبة اللاشعورية غير المصرح لها بالظهور على مسرح الشعور ـ أو ما قبل الشعور ـ بصفتها الشخصية .. تبحث عن رغبة أوفكرة مصرح لها بالوجود فيما قبل الشعور ، وبطبيعة الحال لا تطمع فى التحالف مع فكرة ذات شأن ، أو لديها فرص قوية للتحقق ، بل تجد ضالتها المنشودة فى الافكار التافهة التى لا تجد بمفردها مجالا للعمل وتحقيق ذاتها ..

وهذا هو السبب فى أن الرغبات اللاشعورية تتخير ستارا لها فى تكوين الاحلام أحداثا عرضية تافهة جدا فى كثير من الاحيان مما حدث فى اليوم السابق أو فى الفترة الاخيرة ..

والخلاصة انه ما من حلم نقوم بتحليله الا ونخرج من هذا التحليل بخاطر من الخواطر الحديثة العهد بالوعى أو الشعور ، وغالبا ما يكون هذا الخاطر تافها أو منبوذا

وثمة سبب آخر لسهولة استخدام هذه التوافه فى تكوين الاحلام ، فانها بسبب تفاهتها لا تثير ريبة الرقيب الشعورى ، فلا تلقى أدنى مقاومة ..

وينبغى الا ننسى أن الخواطر التافهة الحديثة العهد ، تكون غالبا خالية من الارتباط بسائر الخواطر فى الذهن ،

فيسهل على الرغبة اللاشعورية التحالف مع هذا الخاطر المنعزل الخفيف الحركة الذى لا تثقله علاقات ترابط او تداعى كثيرة

ومن هنا ندرك أن الذكريات الحديثة التافهة لا غنى عنها لاحداث الاحلام ، وكما أنها تستمد من الرغبات اللاشعورية شدتها وأهميتها ، فهى تمد تلك الرغبات بما تتمتع به من تفاهة لها أهميتها لتمكين الحلم من الحدوث على مسرح الشعور وما قبل الشعور



الفصل الثامن

تطور الجهاز النفسي • لماذا يوقظنا الحلم ؟

الكبت • من اللاشعور إلى الواقع



تطور الجهاز النفسى

ولا مناص قبل أن نمضى قدما فى هذه الصفحات أن نتحدث عن أطوار « الجهاز النفسى » .. فهذا الجهاز انما وصل الى كيانه القائم بعد تطور فى مراحل النمو . فليكن هدفنا الآن هو تصور « الجهاز النفسى » فى بعض أطواره السابقة ..

المفروض أن « الجهاز النفسى » فيما مضى كان هدفه الاول هوالوقاية من المؤثرات ما وسعه ذلك ، ولذا اجتهد أن يتخلص من أى اثارة حسية تأتيه من الخارج ، بيد ان استخدام « الجهاز النفسى » فى وظائف الحياة الاخرى حتمت أن يقوم هذا الجهاز بتحوير عمله ، فاذا احس الرضيع بالجوع ولم يستطع تفريغ هذا الاحساس بحركات الحصول على الطعام مباشرة لجأ الى ما يسمى « التعبير الانفعالى » فيصبح معبرا عن جوعه وحاجته الى الطعام ، ولكن هذا « التعبير الانفعالى » ليس هو الغرض الاساسى من الاثارة الحادثة فى « الجهاز النفسى » لان الغرض الاساسى هو اشباع الرغبة أو الحاجة موضوع الانفعال ..

والملاحظ أن كل تهيج انفعالى يقترن فى « الجهاز النفسى » بذكرى اشباع سابق للحاجة القائمة ، فذكرى خبرة الشبع تقترن مع تهيج الاحساس بالجوع ، ويكون الغرض الاساسى لهذا الانفعال هو تجديد تلك الذكرى بحقيقة واقعية بقدر الامكان، والاندفاع نحو هذا التجديد

هو الرغبة ، والتجديد نفسه هو تحقيق الرغبة ، ويتم تحقيق الرغبة واقعيا فى حالة اليقظة ، وعند العجز عن ذلك لسبب من الاسباب يقوم الحلم بتقديم المسرح اللازم لتحقيقها !

وليس هناك ما يمنع من الاعتقاد بأن « الجهاز النفسى » فى مراحله السابقة كان يرد على هياج الرغبة باشباع ذاتى وهمى قبل التحقيق الفعلى لتلك الرغبة ، ومعنى هذا أن ما يحدث فى الحلم الآن من تحقيق الرغبة كان يحدث فى مرحلة سابقة من مراحل التطور أثناء اليقظة العادية

ويبدو أن حدوث الاشباع الادراكى عن طريق التصور وحده قد أثبت فشله ، بحيث اختزلت هذه المرحلة المضللة ، وصار الغرض من التعبير عن الرغبة والوصول الى اشباع فعلى أو تحقيق واقعى لا مجرد التحقيق الادراكى أو التخيلى .. فعندما لا تجد الرغبة طريقها مفتوحا الى التحقيق الواقعى تلتمس المخرج الآخر الممكن وهو الحلم

ومن هنا يحق لنا ان نقول انالحلم هو محاولة لتحقيق رغبة على نحو ما .. فما من قوة تستطيع تشغيل « جهازنا النفسى » سوى الشعور برغبة ..

وبتعبير آخر ، يعتبر الحلم وسيلة أولية منقرضة كانت يوما ما جزءا من الواقع الفعلى لحياة اليقظة عندما كا التكوين النفسى للبشر أكثر بدائية وسذاجة .. فما أشب ظهور منهج الحلم فى التحقيق الادراكى أو الذاتى للرغبة أثناء النوم بما نشاهده من ظهور أدوات الحرب البدائية المهجورة التى تجاوز الراشدون مرحلتها فاذا بها موضع الحفاوة فى حجرات الاطفال، لانها الادوات الوحيدة المتاحة لهؤلاء الصغار مما استغنى الكبار عن استعماله ،

كالاقواس ، والسهام ، والنبال ، وغير ذلك

والحلم ، على هذا الاساس ، هو رجوع الى مرحلة طفلية من الحياة النفسية للبشر ، ويؤيد هذا الافتراض أن المرضى بأمراض عصبية يحدث لديهم نكوص أو ارتداد الى مراحل سابقة من النمو النفسي .. فاذا بتحقيق الرغبة الادراكي أو الذاتي غير المرتبط بالواقع يبدو فى يقظته ، ويعيشون به أو يعيشون عليه بنفس الطريقة التى يتوهم الاصحاء بها أنهم ظفروا بتحقيق رغباتهم وهم نيام

وغنى عن البيان أن الرغبات اللاشعورية لا تبقى أثناء النهار مستسلمة للعجز والخمول ، بل ان قوتها لا تكف عن النشاط .. وكلما وجدت منفذا الى ما قبل الشعور ، ثم الشعور ، لم تتردد فى المرور منه ولو عن طريق « التحويل »

والتحويل كما سبق القول عملية شبيهة بعمليات تحويل رصيد النقود من شخص الى شخص آخر ، فاذا بطاقة الرغبة اللاشعورية الممنوعة وقد تحولت الى رغبة أخرى مسموح بها أو شبه مسموح بها .. يتم عن طريقها تحول التيار الاندفاعي من أعماق اللاشعور الى المجال الشعوري والحركي فى موضع يبدو للنظرة السطحية أنه لا يستحق كل هذه الحماسة وهذا العنف

ان الذى لديه طاقة لا شعورية عنيفة مكفوفة أو مكبوتة ، ينتهز فرصة أى عمل يستطيع القيام به فيصرف فيه طاقته المكبوتة ، وعندئذ يقول التعبير الدارج فى شيء كثير من الفطنة أن ذلك الشخص ينفس عن همه بذلك العمل ..

ولعل هذا هو السبب فى أن المرضى بأمراض عصبية والمجانين يلاحظ عليهم العامة قوة غير منتظرة فى أداء

ابسط الحركات ، وحرارة غير متناسبة مع المناسبات الظاهرة ..

ومن هنا ندرك الاهمية الكبيرة لجهاز الرقابة الشعورى أو الواعى ، لان هذه الرقابة هى التى تمنع الرغبات اللاشعورية من الوصول الى السيطرة على الجهاز الحركى للشعور ، ففى أثناء النوم تحتال الرغبات اللاشعورية ــ كما قلنا سابقا ــ وتحول شدتها الى خاطر من خواطر ما قبل الشعور كى تظفر بتحقيق صورى فى الحلم ، ولكن الرقيب عند النوم يغلق الباب بالمفتاح على الجهاز الحركى ، فلا تستطيع هذه الصور عند الاصحاء أن تتحول الى تحقيق فعلى عن طريق الحركة ..

وهكذا يكون جهاز الرقابة بمثابة صمام الامان الذى يحول بين الرغبات الممنوعة والتحقق الفعلى أو العملى ، ولا يترك لها أثناء النوم الا التنفيذ الادراكى الذى لا ضرر منه ..

ان الرقيب هو « الديدبان » القائم على صيانة سلامتنا العقلية بهذا الاسلوب المشار اليه آنفا ، وقد يكون من الطبيعى أن يظفر هذا « الديدبان » بشيء من الاسترخاء والراحة مدة النوم ، وهذه هى الفرصة التى تنتهزها الرغبات اللاشعورية ، فان هذا لا يحدث الا بعد اتخاذ الاحتياطات التى ذكرناها .. فتظل هذه الرغبات مهما عربدت فى حدود التصورات الحلمية عاجزة عن النفاذ الى عالم الواقع العملى ، لان الجهاز الحركى فى أمان من يدها .. فلا بأس من ترك الحبل لها على غاربه بعض الوقت ما دامت منافذ مواطن الخطر فى أمان تام من عبثها

وهذا هو الفرق بين نوم الاصحاء ويقظة المرضى العصبيين أو العقليين .. فالاصحاء يغفو جهاز الرقابة عندهم بعض الاغفاء ، وقد احتاط قبل غفوته فأقفل باب

الجهاز الحركى حتى لا تعبث به الرغبـات اللاشـعورية المعربدة ، ولـكن المريض العصبى أوالعقلى يغفل الرقيب لديه عن ذلك الاحتياط ، أو يعجز عنه ، فلا يحمى الجهاز الحركى من سلطان الرغبـات المتسربة من اللاشـعور فى الاحلام ، فلا يتخيل تحقيق رغبتـه فحسب فى شـكل صور ، بل ويحاول فرض ذلك التحقيق على الواقع فى شكل حركات وأفعال ، أى فى شكل سلوك !

ان العامل الاساسى فى حالة الحلم هو سيطرة «الرغبة فى النوم » على الرقيب الشعورى ، وهـذه الرغبة أو الحاجة الى النوم تقترن باغلاق طـريق الجهـاز الحركى الشعورى مع شىء من التهاون فىمراقبة محتويات ما قبل الشعور ، وكما ينام القط فتخرج الفيران من الشقوق والجحور ، كذلك تتسلل الرغبات اللاشعورية المـكبوتة عندما ينام الرقيب بعض النوم ، وهى تعلم جيـدا أنه لا ينام مائة فى المـائة ، ولذلك لا تجترىء على الخروج سافرة بل تتخذ أقنعة من محتويات ما قبل الشعور كى تمر أمام الرقيب الوسنان ! ..

وهى اذ تخرج الى المسرح تجد أجهزة الاعمال والحركة بعيدة عن متناول يدها ، فلا تملك الا الصور البصرية.. وهذه — كما قلنا — لا ضرر منها فى حـد ذاتهـا ، فلا تستحق منا عناء البقاء متيقظين تماما لمنعها من الحدوث

وسنحاول هنا أن نوضح أهمية عامل الرغبة فى النوم أو الحاجة الى النوم .. فنشير الى حلم سبق أن تحدثنا فى تحليله ، وهو حلم الوالد الذى رأى فى المنام ابنه المتوفى ينبهه الى اشتعال النار فيه .. وكان الباب بين غرفة الاب وغرفة الميت مفتوحا ..

ان وهج النار من الحجرة الاخرى سقط على جفون الاب النائم ، فاستدل من ذلك رغم نومه أن النـــار

اشتعلت فى جثمان طفله ، وصور الحلم صـــورا تتفق مع هذا المعنى ، وقلنا ان هذه الصور كانت تهدف الى اطالة عمر الطفل ، فتحقق بذلك رغبة قوية لدى الحالم ، ونقول هنا انه كانت الى جوار تلك الرغبة رغبة أساسية أخرى بلا شك هى رغبة الاب فى النوم نتيجة حاجته الشديدة للراحة بعد طول السهر والتمريض ، ولا سيما بعد أن وضع موت الطفل حدا لكل جدوى من السهر بعد ذلك

وهكذا نرى أن الحلم الذى رآه ذلك الاب كان يوفق بين تحقيق رغبتين شديدتين معا ، رغبـــة يوافق عليهـــا الرقيب كلية وهى اطالة فترة النوم ، ورغبة أخرى هى اطالة عمر الابن أو افتراض أنه لم يزل حيا فى زمن ذلك الحلم على الاقل .. وكأن الرقيب اذ ســمح بهذا الحلم يقول لنفسه :

ــ خير لك أن تسمح لهذا الحلم بالحدوث ــ على هذا الوجه ــ حتى لا تضطر للاستيقـــاظ فورا والتخلى عن نومك فى الحال للبحث عن أسباب ذلك الوهج فى الحجرة الاخرى

واذا دققنا النظر فى جميع الاحلام ، وجدنا أن الرغبة فى النوم أو الاستمرار فيه مشتركة فى جميـــع الاحلام ، وتبدو هذه الرغبة أنشط ما تكون فى جميـــع الاحلام ، قبيل لحظة الاستيقاظ.. فاذا بجميع التأثيرات الخارجية الواقعية كالاصوات ورنين جرس المنبه والنداءات وقـــد تحولت الى عناصر متوافقة داخـــل حلم ، الغرض منه صرف الذهن عن جدية هذه التنبيهـــــــات الخارجية ، وتحويلها الى عوامل من شـــأنها اطـــالة فترة النوم .. وهكذا تتحول هذه التنبيهات من مذكر بالعالم الواقعى الخارجى ، أو عالم اليقظة ، الى جزء داخل فى نسيـــج الحلم أو عالم النوم

وهناك ناحيـــة اخرى يبدو فيها واضحا تأثير عامل الرغبة فى النوم أو الرغبة فى اســتمرار النوم .. وذلك عندما يتجاوز الحلم كل حد معقول فى تحقيق الرغبة أو التشويه الذى يستعين به لتحقيق الرغبة .. فيتململ الرقيب ، ويهم أن يفرك عينيه ويصحو ليطرد هـــذه الفيران العابثة الى جحورها .. واذا بشىء يقول له :

ــ لا داعى لليقظة وحرمان نفسك من النوم ، فأنت تعلم أن هذه مجرد أحلام لا خطر حقيقى منها مهما بلغ من أمرها !

وهذا يسوقنى الى نتيجة هامة :

ــ اذا كنا ندرى اننا نائمون ، فنحن ندرى بمثل تلك القوة اننا نحلم .. ونحن نستسلم للحلم ، أو نسلم به ، مثلما نسلم بالنوم ونستسلم له

وتتفاوت درجات هذا الاحساس بالنوم والحلم لدى الافراد ، فهناك أشخاص يحسون بوضوح أنهم فى حالة نوم وفى حالة حلم .. ولذلك يستطيع هؤلاء الاشخاص التصرف فى أحلامهم كما يتصرف السائق فى توجيـــه سيارته ، فالحالم منهم اذا لم يعجبه اتجاه أحد الاحلام ، وضع له حدا من غير أن يخرج من سباته .. وشرع فى تكملة له أكثر اتفاقا مع أهوائه ، فما أشبه هذا بالمؤلف الذى لا تعجبه نهاية مسرحيته ، أو يجد أنها لا تجد هوىً لدى الجمهور ، فيحذف الفصل الختامى وينسج خيوط فصلٍ جديد بكل سرعة ولباقة ..

وليس من النادر أن يجد الاشخاص من هـــذا النوع أنفسهم فى مواقف غرامية أو جنسية اثناء الحلم . وحين يصل الحلم الى نقطة حرجة يشعرون أن من اللائق صرف أنفســهم عن تتمة الموقف مدركين أنه مجرد حلم ، ومنهم

من يحدث منه العكس .. فاذا لام نفسه أثناء الحلم على تصرف ، صرف هذا الملام قائلا :

ــ انا أعلم أن هذا مجرد حلم .. لا حرج على من اللهو وقضاء اللبانة فى حلم لا ضرر منه على أحد

والعجيب أن الرغبة فى النوم تتوافق مع الرغبة فى تحقيق الاهواء ، ولكن من جهة أخرى نجد الرغبة «قبل الشعورية » فى النوم لدى الام مشروطة بقيد هو عدم يقظة الطفل الرضيع او المريض ، وقد تعجز أشد الاصوات الغريبة عن ايقاظ تلك الام ، وان سببت لها أحلاما تساعدها على اطالة نومها وتجاهل تلك المنبهات الاجنبية ارضاء للرغبة «قبل الشعورية» فى التمتع بالنوم أطول مدة ممكنة ، ولكن أقل حركة خافتة من طفلها بالذات تكفى لايقاظها فورا ، لان هذا الايقاظ يأتى متفقا مع رغبتها « قبل الشعورية » فى النوم أتفاقا عن رضاء تام من الطرفين .. والحارس على هذا الاتفاق هو الرقيب الشعورى أو « الانية » للأم



لماذا يوقظنا الحلم ؟

ان أهم ما يشغل ما قبل الشعور فى الليل ، هو الرغبة فى النوم أو الاستمرار فيه ، وعلى هذا الاساس نستطيع أن نفهم ما يحدث عند تكوين الاحلام بصورة أوضح ..

وتوطئة لهذا نلخص ما حصلنا عليه من معلومات فى : أن رواسب أحداث اليوم السابق التى لم تفز باهتمامنا أثناء اليقظة تبقى فيما قبل الشعور ، هى وبقايا ما أثاره نشاطنا اليومى من رغبات لاشعورية مكبوتة ، وعند النوم يتلاقى على الحدود الفاصلة بين اللاشعور وما قبل الشعور ما أثير من الرغبات وما أهمل من الخواطر والافكار النهارية ..

وفى غيبة الرقيب أيضا ، تعمل الرغبات اللاشعورية المكبوتة أو المستثارة على تحويل طاقاتها الكبيرة الى بقايا النشاط النهارى المهملة ، والمرجح ألا يحدث هذا التحويل الا بعد الاستغراق تماما فى النوم ..

وبعد حدوث التحويل ، تتجه الطاقة الجديدة الى مجال الشعور نفسه مخترقة كل طبقات ما قبل الشعور، وعند الحدود الفاصلة بينما قبل الشعور والشعور يربض « الديدبان » الرقيب ، وهو أمين جدا فى عمله ، ولذلك لا ينام بحواسه كلها ، ولذلك أيضا تعمد الطاقة المتسللة الى الكثير من التنكر أو عمليات التشويه ، فتصير هذه الطاقة قوة مندفعة ذات واجهة مشوهة ، وتستثير من الذكريات المقترنة بمظهرها الجديد المشوه صورا كثيرة

من مخزونات الذاكرة تساعدها على أعمال التصوير البصرى التى نسميها باسم الحلم ..

ويزعم «جوبلو» أن الحلم لا يتراءى للنائم الا فى الفترة التى تقع بين التهيؤ لليقظة وبين اليقظة ذاتها ، وبعبارة اخرى أن الحلم يمثل مرحلة « احتضار » النوم ، وهى مرحلة غالبا ما تكون قصيرة جدا .. ولان صورة الحلم كانت واضحة وقوية نتوهم أن الحلم هو الذى أيقظنا ، مع أن العكس هو الصحيح .. اى أن استعدادنا لليقظة هو الذى جعل صورة الحلم تبدو قوية واضحة ، فليس الحلم فى نظر « جوبلو » الا افتتاحية يقظة ، أو المدخل الى اليقظة ..

ولكن من المعروف للناس جميعا أن هناك احلاما لا تعقبها اليقظة ، ومن هذه الاحلام بالتأكيد تلك الرؤى التى يعلم الحالم فيها أثناء الحلم انه يحلم ، اى انه نائم ، ثم يستمر فى حلمه أو ينتهى منه ويظل نائما ..

اننى لا أستطيع ان أقر « جوبلو » على رأيه ، فخبرتى فى الاحلام ، ومجموع نظريتى لا يتفق مع القول بأن الحلم لا يشغل الا فترة التهيؤ للاستيقاظ

انى على العكس أرى أن الحلم يبدأ قبل النوم ، أى ان جذور الحلم ومقدماته تقع فى صميم حياتنا النفسية ونشاطنا النفسى وجهازنا النفسى أثناء اليقظة ، واما الجزء الظاهر من الحلم ، أو المرحلة التنفيذية من الحلم التى هى بمثابة الثمرة من نبات له فروع وأصول وجذور ، فيستغرق حدوثه معظم فترة الليل أو كلها ، ولذلك فنحن نرى أن الذى يقرر بعد يقظته انه ظل يحلم طول الليل محق فى احساسه هذا وليس واهما ، حتى ولو لم يستطع ذلك الشخص أن يتذكر موضوع احلامه

وعلى ضوء تجربتى الشخصية ، أستطيع أن أقرر بغاية

الطمأنينة أن الاستعداد للحلم قد يستغرق جملة أيام وليال ، وفى هذا ما يفسر لنا البراعة والدقة والغنى التى تمتاز بها الكثرة الغالبة من مشاهد أحلامنا ..

انالاحلام التى نراها أشبه بالالعابالنارية والصواريخ التى يحتاج اعدادها الى جهد كثير ووقت طويل ، وان كان اطلاقها وظهورها فى عنان الجو لا يستغرق الا بضع ثوان !

ولكن هذا لا يقلل من اهتمامنا النظرى بتلك الاحلام التى تتسبب فى قطع نومنا بشدة ، فمعنى ذلك القطع للنوم أن الرغبة اللاشعورية أوتيت وقتئذ من القوة ما تغلبت به على الرغبة قبل الشعورية التى تتركز فى الاستمرار فى النوم ، ولكن اليقظة فى الغالب يعقبها رجوع الى حالة النوم بسرعة ، شأن من يقطع تيار مشاهده الذهنية ليذب حشرة حطت على طرف أنفه ثم يعود الى سياق أفكاره من جديد ..

فاذا راعينا هذا كله ، وجدنا انالاوفق للصحة العقلية هو ترك الرغبات الشعورية تنفس عن شدتها أثناء الحلم ، ولو أدى ذلك الى ازعاج رغبتنا فىاستمرارالنوم ، وتنبيه الرقيب بفرط عربدتها أو عنفها .. فذلك أدعى للراحة النفسية من مداومة التيقظ للمكبوتات ليل نهار ، فلا تقل حدتها وتظل شدتها تقلقنا وتذود عنا الراحة

الكبت

اننا نعتقد أن من وظائف الحلم بلا شك أن يقوم بعمل صمام الامان فى التنفيس عن الشحنات الزائدة عن الحاجة ، وما أكثر الاشياء الضارة التى تتجرد من ضراوتها وسمومها بعد أن تتناولها الاحلام بالتعبير والتصوير ، ونعتقد كذلك أن نفوسنا فى الحلم ترتد عن كمالها الراهن ودقتها فى التنظيم والكف الى مرحلة بدائية تبدو فيها أقرب الى وسائل الطفولة التى ينقصها الاحكام ، ولولا الرغبات المكبوتة والمكبوحة لما تيسرت القوة الدافعة التى تكفى لاحداث الاحلام ..

وقد اتضح مما سبق أن الحلم يتناول بعض الاحداث التى تبقت من نشاطنا اليومى ، فيستخدمها كما يستخدم عامل المطبعة الحروف المتناثرة ليؤلف منها وحدة متكاملة وليس من الضرورى أن يتم هذا التاليف أثناء النوم ، بل ليس ما يمنع أن يكون هناك تيار فيما قبل الشعور لا نعنيه أثناء اليقظة يجمع تلك الشتات ويداول بينها حتى اذا حانت ساعة النوم بدأ العرض السحرى . فما اشبه ذلك بالاعمال المتنوعة الشاقة البارعة التى تجرى طوال النهار فى مطابخ بيوتنا ونحن لا نشعر .. حتى اذا دق ناقوس الطعام وجدنا على المائدة صحافا متعددة الالوان

واننا لنخرج من هذا بفكرة بالغة الاهمية هى ان من أوجه النشاط الفكرى الشديدة التعقيد ما يمكن أن

يجرى بمعزل عن الشعور التام وبغير اسهام منه ..

ولكن هذه العزلة فى التجميع والتأليف لا تعنى ان المادة المجمعة المركبة من رواسب الشعور فى مجال ما قبل الشعور ممنوع عليها أن تخترق النطاق الى مجال الشعور نفسه ، ولا بد من البحث عن سبب كاف لابقاء هذه الافكار قبل الشعورية بعيدا عن مسرح الشعور أثناء اليقظة ..

ان هذا السبب المباشر الذى يمنع تلك الافكار او المكونات الحلمية من أن تلج الشعور فى حال اليقظة هو « الانتباه » .. فالانتباه مثل شعاع الضوء لا يسقط الا على بقعة محددة يتوجه اليها

ومن شأن الانتباه حين يسقط شعاعه على فكرة أو خاطرة ضعيفة أو واهية هزيلة لا يمكن الدفاع عنها ، ان يتحول الى أخرى يبحث عنها .. ويسقط الخاطرة الاولى من حسابه ، شأنه فى ذلك شأن من يبحث عن اللآلىء ، فكلما وجد محارة خاوية نبذها ولم يعلق بها اهتمامه ، ولكن المحارات المنبوذة لانها فارغة لا تمحى من الوجود لمجرد انها سقطت من حساب صائد اللآلىء

ولذلك قد يحدث أن تتجمع المحارات الفارغة (اى الخواطر الضعيفة المتهافتة) وتكون فيما بينها كومة أو جبهة ، وهذه الكومة أو الجبهة لا يمكن أن يهتم بها صائد اللآلىء ، الا اذا انطفأ المصباح وراح يخبط فى البحر على غير هدى .. فانه حرى أن يرتطم بأكوام المحار الفارغ ، وكذلك الانتباه : اذا غفا أمكن للخواطر المهملة أن تطفو الى سطح الشعور فى غيبة هذا الناقد اليقظ ، ويكون ذلك فى فترة النوم ..

وهذا هو مانعنيه حين نقول ان كواليس مسرح الحلم التى تعمل بنشاط كبير قبل ساعة رفع الستار هى ما

نسميه ما قبل الشعور .. فعمليات اعداد الحلم عمليات نسميها قبل الشعورية

ان هذه المجموعات من الخواطر المهملة أو المكبوحة تفتقر غالبا الى التمويل ، أو الى الطاقة الحيوية الشديدة وهى تجد ما تشاء من ذلك التمويل بين الرغبات اللاشعورية المكبوتة .. فيتسع نطاق الكواليس فى هذه اللحظة ، ولا ينحصر فيما قبل الشعور بل يصل أيضا الى آفاق اللاشعور المترامية ..

وقد يحدث أن تكون الخاطرة الشعورية نبذت الى ما قبل الشعور لاقترانها على حسب قواعد تداعى الافكار بفكرة مكبوتة أو رغبة لا شعورية ، وذلك يؤدى من البداية الى ارتباط بين ما قبل الشعور وبين اللاشعور ينتهى الى نتيجة مماثلة للحالة الاولى تماما ، وهو تكوين أحلام تنتهز فرصة النوم لرفع الستار عنها ..

ولكننا ينبغى أن نتنبه الى فرق كبير بين النوعين ، فالافكار المهملة التى تستطيع الاستعانة بحليف من رغبات لاشعورية غير عنيفة ، وبحيث يسيطر على اللاشعور بسهولة ، تحدث احلاما لا اضطراب فيها ولا عنف ، وأما الافكارالتى ترتبط برغبات لاشعورية شديدة العنف ، فهى حرية أن تعجز عن السيطرة عليها ، ولذا يشتد الصراع بين الفريقين فى مشاهد الحلم ، وتكون النتيجة تلك الاحلام المتناقضة المزعجة ، واكثر ما تكون مصادر هذه الرغبات اللاشعورية من فترة الطفولة الاولى حيث يشتد الكبت .. وهذا يؤدى بنا الى ضرورة توضيح معنى الكبت

وقد تذكرنا فيما سبق أننا نتصور « الجهاز النفسى » فى مراحل تكوينه البدائى ، وكل همه التخلص من الاثارات الخارجية والاستجابة للمؤثرات استجابة مباشرة تقضى

على التوتر الانفعالى ، وهذه الاستجابة الحركية المباشرة هى الاشباع ..

وانتقلنا من ذلك الفرض الى أن حدوث الحرمان ،اى عدم القدرة المباشرة على الاشباع الفورى ، تؤدى الى تراكم شحنات الاثارة من غير تفريغ .. فيحدث توتر انفعالى على صورة ألم ، ويصحب هذا الالم تذكر صور الاشباع القديمة ، وهـذا هو ما يسمى مبدأ اللذة وما يسايره من قانون الالم عند الحرمان منها ..

والمفروض أن اللذة والالم ينظمان الحيـــاة الفطرية تنظيما تلقائيا ، ولـكن العجز عن الاشباع المباشر أدى فى مرحلة تالية من مراحل التطور الى وجود نظامين : هما نظام تصورالاشباع أو الاشباع التصورى، ونظام الاشباع الفعلى أو الاشباع بالحركة فى مجال الواقع لا فى مجال التصور . والنظام الاول هو الذى يصدر عنه الحلم لدى الاصحاء والاوهام المرضية لدى المتاثين فى اليقظة ، واما النظام الثانى فهو نظام اليقظة الذى يقوم على حراسته الرقيب أو الانتباه أو الانية العليا ..

وبسببه قيام هذين النظـامين المتمايزين وجب أن ينفصل اللاشعور الذى تحتجز فى أعماقه المكبوتات بعيدا عن التصور وعن الفعل معا ، عن ما قبل الشعور الذى تترسب فيه الخواطر الخالية من الاهمية والتى لا بأس من ورودها فى نظام التصور أو الوهم .. ولـكنها ممنوعة على كل حال من الدخول فى مجال السلوك الحركى

وخبرتنـا فى الاحـلام تؤكد لنا أن الرغبات المـكبوتة والخواطر المكبوحة لا تنعدم بل تظل محتفظة بطـاقاتها النفسية ، سواء كان الشـخص سليمـا أو مريضا .. فالحلم فى حد ذاته هو الدليـل الحى على حيـسوية تلك الرغبات والخواطر ..

وهذا حرى أن يقود الى القول بأن تفسير الاحلام هو السكة السلطانية المؤدية بنا الى ارتياد كل ما هو غير شعورى أو غير واع من جوانب نشاطنا النفسى ، وهذا وحده كاف للقول بأن تفسير الاحلام على ضوء منهج التحليل النفسى شىء بالغ الخطورة فى تعريفنا بحقائق تركيبنا النفسى ومتاعبنا النفسية .. انه الغواصة التى تستطيع دون غيرها أن تزودنا بعينات وحفريات ومعلومات عن الحياة العاتية المتوارية عن عيوننا فى أعماق البحار ، ولها مع ذلك قوانينها الخاصة وأبعادها المترامية واطوارها العجيبة رغم جهلنا الطويل على مدى القرون بذلك كله ..

بل ان هذا التشبيه أقل من الواقع ، لان ما هوخارج شعورنا من جوانب حياتنا النفسية وثيق الصلة جدا بجهازنا النفسى كله وبأفعالنا وانفعالاتنا ..

ولا مفر من القول بأن أهمية تفسير الاحلام فىالكشف عن أغوار النفس تزداد كثيرا بالنسبة للحالات المرضية ، لانها ستكشف لنا لدى المرضى عما فى داخل « جهازهم النفسى » من تصدع أو تفكك فى مواضع معينة



من اللاشعور الى الواقع

وهناك معارضون يصرون على ان ما هو نفسى مرادف لما هو شعورى .. فما لا نشعر به فهو ليس من انفسنا أو من نشاطنا النفسى ، ولو صح قولهم لكانت دعوانا بأن هناك عمليات نفسية لا شعورية ، أو قبل الشعورية ، فيها نوع من الخلط أو التناقض ، ولكان معنى هذا أيضا أن جميع ما يحصل عليه طبيب الامراض العصبية من ظواهر نفسية مرضية لا قيمة له ، مع أن هذا هو حجر الزاوية فى بناء الطب النفسى ورسم الطريق للعلاج النفسى

وحسبنا أن نقول لهؤلاء ان الصفحات السالفة من هذا الكتاب تحفل بعمليات عقلية مركبة أشد التركيب ، تم الجزء الاكبر منها فى غفلة من الشعور وبعيدا عن مجاله ، وهى حقيقة تكفى فى حد ذاتها للجزم بأن جزءا لايستهان به من حياتنا النفسية يقع خارج دائرة الشعور أو الوعى وهذا يسلمنا الى القول مع « دوبريل » بأن الشعور والنشاط النفسى أو النفس شيئان ــ أومفهومان ــ ليسا سواء من حيث «الماصدق» ، وهو كلام فلسفى ترجمته أن الشعور والنشاط النفسى ليسا مترادفين ، وأن كل ما هو شعورى فهو نشاط نفسى حتما .. ولكن العكس ليس صحيحا ، فليس كل نشاط نفسى شعوريا بالضرورة ..

اننا أمام حقيقة علمية لا مناص من التسليم بها ، وهى

أن اللاشعور هو أساس « الجهاز النفسي » .. انه المحيط الواسع الذى يحتل الشعور جزءا محدودا من سطحه ، لان كل ما هو شعورى انما يأتى نتيجة لسلسلة من التمهيدات اللاشعورية ، وفى الوقت نفسه ليس من الضرورى أن يجد كل ما هو لا شعورى طريقه الى الشعور ..

ان من العمليات اللاشعورية ما يظل الى النهاية لا شعوريا ، ولكن هذا لا يقلل من قيمته .. كما أن عمليات امتصاص الغذاء من التربة تظل فى حدود الجذر من النبات ولا يقلل ذلك من أهميتها .. مع اننا لانراها بأعيننا كما نرى الاوراق والبراعم والثمار

ان اللاشعور هو الحقيقة النفسية الكبرى ، وفى اغواره الخفية المجهولة منا آلاف الاشياء التى تؤثر فينا ونحن لا ندرى .. بل ان ما يتبدى من نتائج اللاشعور فى دائرة الشعور لا يمكن أن يبدو لنا على حقيقته ، بل بعد تعديلات وتشكيلات ضرورية ..

اننا لا نعرف عن حقيقة العالم الخارجى الا ما تصوره لنا حواسنا ، فليس هناك ما يثبت لنا أن من نراه أحمر اللون انما هو أحمر فى حقيقته فعلا ، وان ما نحسه ساخنا انما هو حار فى حقيقته فعلا .. فكل ما نملكه من وسيلة للتعرف الى العالم الخارجى هو تصوير حواسنا لتلك الاشياء الغريبة عنا ، وكذلك الحال بالنسبة للاشعور .. فنحن لا نعرف ما به من حقائق وموجودات الا عن طريق ما يصوره الشعور من تلك الموجودات المجهولة منا ، فاللاشعور ألصق ما يكون بنا وأبعد مايكون عن ادراكنا ..

وان التسليم بوجود اللاشعور هو الاساس الحاسم لتوضيح الصلة الحقيقية بين مجال الشعور ومعطيات

الاحلام ، فلم تعد الاحلام خارقة من الاعاجيب ، ولا فعلا من أفعال الجان ، ولا نذيرا من نذر الغيب .. بل انها نتيجة طبيعية لنشاط طبيعى لذلك الجزء المحجوب عنا من النفس ..

بل اننا نعرف الآن ان الطاقة العقلية التى تبدو ناشطة فى الحلم ليس لها مصدر آخر سوى المصدر الذى تنبع منه الطاقة العقلية أثناء اليقظة . ومرة أخرى يكون رأى المعلم الاول « ارسطو » أقرب على عراقته فى القدم الى النظرة العلمية الحديثة ، وهو يقول ان الحلم انما هو تفكير النائم من حيث هو نائم .. فما أقرب ذلك الى القول معنا بأن الحلم انما هو صورة بصرية تعبرعن اندفاع طاقة نفسية ، كانت تصادرها اليقظة ، فوجدت فرصتها للتسلل متخفية متنكرة تحت جنح الليل ..

وبين أعماق اللاشعور التى لا تسمح لها طبيعتها بالخروج على ما هى عليه الى مسرح الشعور ، وبين ذلك المسرح شقة من الارض الحرام هى الذى نسميه ما قبل الشعور ، وهو الذى يقوم بدور الوسيط وينفذ منه التسلل الذى نسميه تعبيرا بصريا بالاحلام عن الطاقات اللاشعورية ..

ان ما قبل الشعور هو الذى يفترض فيه اغلاق المنافذ بين اللاشعور والشعور ، وهو فى الوقت نفسه يقفل المنافذ الى جهاز الحركة الارادية أو الشعورية فى الانسان

ولعل سائلا يتساءل الآن :

– ماذا بقى من عمل للشعور بعد آن انكمش هذا الانكماش فى حدود ضيقة جدا تطفو فوق سطح المحيط النفسى ؟..

وجوابنا أن الشعور فى مذهبنا وظيفة حسية لادراك الحالات النفسية .. لا اكثر ولا أقل ..

وما من شك فى أن تكوينات « الانية » العليا للانسان تتمثل فى الرقيب الشعورى الذى يقف على الحدود بين الشعور وما قبل الشعور ، وأن الكثير من عملياتنا النفسية يتوقف على دقة قيام ذلك الرقيب وأمانته ويقظته وفطنته ، ومن أهم مظاهر نشاط هذا الرقيب ما ينتاب احلامنا من تنكر او تشوية توقيا لاثارة ريبته وأعمال المصادرة التى يقوم بها فى حزم وشدة ..

ولا شك أن الكثيرين من المتشككين يتساءلون عن قيمة مثل هذا البحث بالنسبة للاشخاص الطبيعيين الاصحاء ولا شك أيضا فى أن المتزمتين يشمئزون من بعث هذه الدراسة للنزعات الغريزية المكبوتة والكشف عن نشاطها المنافى للاخلاق فى عرفهم ..

وأنا لست على مذهب هؤلاء المتزمتين ، ولا أرى أنه يحق لنا الاعراض عن نتائج الكشوف العلمية لا لشىء الا لانها تخالف هوانا أو تجرح حياءنا ، وفى اعتقادى أن ذلك الامبراطور الرومانى الذى امر باعدام أحد رعاياه لانه حلم باغتياله قد اقترف خطأ فادحا ، وكان الاجدر به أن يحاول الكشف عما وراء ذلك الحلم من حقائق نفسية ، وليته وعى جيدا كلمة افلاطون الحكيم :

ــ الانسان الفاضل لا يتجاوز بشروره دائرة الاحلام ، أما الشرير فلا يكفيه الحلم بل يتجاوزه الى الفعل .. !

وذلك حرى أن يجعلنا نتسامح فى شأن الاحلام . على أني أنبه بشدة ووضوح الى أن الرغبات اللاشعورية فى نظرى موجودة قطعا فى أغوار النفس وتفصح عن فاعليتها القوية قطعا فى الاحلام ، ولكن ذلك لا يمنحها فى نظرى الحق فى الوجود خارج دائرة النفس ، أى فى عالم الواقع، وأنا لا أدعو الى الانتكاس فى التربية والاخلاق بحيث ننقاد لرغباتنا اللاشعورية لمجرد الاعتراف لها بالوجود والقوة

فى مجالها النفسى الخفى .. فللأخلاق والتربية حكمهما وسيادتهما على عالم الواقع ..

وانى أرفض بشدة كذلك أن يكون نشاط اللاشعور كما يتبدى فى الاحلام أساسا للحكم على آخلاق الشخص أو طباعه ، فنحن لسنا فضلاء لاننا بلا غرائز قوية .. بل نحن فضلاء لاننا نعرف كيف نتحكم فى مستوى شعورنا فى غرائزنا ورغباتنا اللاشعورية بالغة ما بلغت من القوة

***

أما أن الاحلام كوة نرى منها لمحة من الغيب والمستقبل فذلك باطل .. لان الحلم انما يصور الماضى ويصدر عنه ويعبر عن مكنوناته المطوية أو المنسية ..

وكل ما للحلم من صلة بالمستقبل أنه يصور لنا رغباتنا التى كبتها الماضى أو كبحها ، وقد تحققت على صعيد الحاضر أو فى فترة من فترات المستقبل ..

ان الحلم أولا وأخيرا محاولة تحقيق رغبة لم تتم .. محاولة قد تكون واضحة ناجحة أو ملتوية متعثرة مشوهة ، ولكنها محاولة على كل حال ..



فهرس

صفحة

صفحة



وكلاء مجلات دار الهلال

العراق : السيد محمود حلمي - المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد - ص.ب ٢١

البرازيل : Dr. Michel H. Tomé,
Paeto Do Colegio No.
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غانا : Mr. Hussein Abi Hassan,
P.O. Box 2561,
ACCRA, GHANA

سيراليون : Messrs. Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Siera Leone

سنغافورة : M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit,
Almaktab Attijari Asshargi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU,
7, Bishopsthorpe Road,
London S. E. 26,
ENGLAND

نيجيريا : Mr. Mohamed Said Mansour,
Atlas Library Company,
126, Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

خطت الانسانية في هذا القرن مرحلة أكبر مما خطته في عشرة قرون مجتمعة من تاريخها .. وفيه اكتشف الفضاء ، فكان ذلك كشفا أضخم من كشف الامريكتين على يد كريستوفر كولمبس ، ولكن عالم النفس الانسانية لا يمكن أن يكون أقل قيمة بحال من الاحوال من عالم الفضاء أو قارة من قارات الارض

وكولمبس النفس الانسانية هو سيجموند فرويد ، وسفينته التى عبر بها عن لجة المجهول من أغوار النفس هي كتاب « تفسير الاحلام » الذى نقدم خلاصة مبسطة منه بين دفتي هذا الكتاب

وقد ظل موضوع الاحلام منذ أقدم العصور مصدرا للرهبة أو التفاؤل بين عشائر الشرق والغرب ، ولم يزل الناس في يومنا هذا يتطيرون لما تحدثهم به رؤى المنام ، ولكن سيجموند فرويد ألقى بذلك كله جانبا ، ووضع لاول مرة في التاريخ أساسا علميا ثابت الدعائم متماسك الاركان لتفسير هذه الظاهرة